حكايات عصرية

تحت مجهر الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور محمد فراس السعودي

حكايات عصرية

تحت مجهر الإسلام

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2012 – 1433

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432
E-mail:almaktabi@Gmail.com / almaktabi@mail.sy

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لعل التقدم الذي وصل إليه عالمنا اليوم ، وانفتاح المجتمعات على بعضها يغيّبان السمة العامة لمجتمعنا ، ويجعلان منه خليطاً من الأفكار والقيم والسلوكيات ، سلباً وإيجاباً.

ولكننا إذ نريد الكلام عن خفايا واقعنا فإنما يتبادر إلى أذهاننا الجانب المظلم أولاً؛ وذلك لغلبته ، أو ربما لأن هذه الوقائع والمشاهد لم نألفها في عهودنا السابقة ، أو ربما لأننا بتنا على شفا جُرُفٍ هارٍ . . .

في حكاياتي اليوم حاولت أن أسلط الضوء على هذا الجانب المظلم ، لا حباً بالنقد ، بل سعياً للإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فحياتنا مليئة بالتجارب ، ومهما بلغ الإنسان من الخبرة فلن يصل إلى الكمال المطلق ، وسينقصه الكثير ، ولكن الإنسان الذكي هو الذي يتعلّم من عثرات غيره ، لا من ينتظر حتى يقع في الحفرة كي يتجنبها!

حكايات عصرية تحت مجهر الإسلام. . . حكايات من صميم واقعنا في مجتمعنا الإسلامي ، عايشت بعض أصحابها ، وسمعت عن بعضهم أثناء عملي محاضراً في جامعات دمشق ، وأخذت بعضها من مكتب أخي المحامي ، فصغتها في قالب أدبي رشيق يسهل على الصغير والكبير تناوله ، وشفعتها بحِكَم وعِبَر من آي القرآن ، وهدي النبوة.

ولعلها رسائل توصلنا في نهاية المطاف إلى حقيقة أن الصانع أعلم

بصنعته ، وشرعه أصلح لهذا الإنسان من تدبيره لنفسه ، وأن المجتمعات كافة ما خالفت الشريعةَ يوماً إلا وقعت في المآزق والمحن. فاحرص أيها الإنسان ألاَّ تتعدى على الصانع ، وإلا وقعت فيما وقع فيه أصحاب قصصنا.

وأخيراً. . .

هذا جهد متواضع أضعه بين أيدي شبابنا وفتياتنا اليوم ، راجياً من الله الأجر ، وللمسلمين النفع.

الدكتور

محمد فراس السعودي

اليتيمان

غابت الأم كما غربت الشمس ، وامتلأ البيت برداً وظلاماً ، فقد اختار الموت هذا البيت من بين بيوتات الحي لترحل الأم وتخلف وراءها طفلين؛ صبيّاً في السادسة من عمره ، وطفلة ما زالت رضيعة . . .

كان الصبي قد قرأ في كتبه المدرسية عن الموت ، ولكنه لم يلمسه حقيقة ، ولمَّا يُفزع بعدُ بحبيب أو قريب ، فكانت معرفته بالموت معرفة نظرية . وأما الصغيرة فقد فقدت قطرات من الحليب الدافئ الممزوج بكم هائلٍ من الحب والدفء والعطاء ، عندما كانت شفتاها الصغيرتان تلامسان ثدي أمها ، فتمنحها السرور والأمان مع الغذاء . ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

ارتفع بكاء الناس ، وازدحم البيت بالأقرباء والغرباء ، وارتفعت صيحات النساء داعيةً بالويل والهلاك ، بعضها صيحات معترضة على قضاء الله ، وبعضها صيحات فقد أصحابها وعيهم . وكان صغيرنا يحاول الاقتراب من غرفة أمه لينظر إليها ، ولكن النساء كُنَّ يدفعْنَهُ خارج الغرفة ويحاولن إبعاده عن أمه .

ومضى ظلام ذلك اليوم الطويل ، وأشرق نهار جديد ، ولم يجد الطفل شفتي أمه تطبعان قبلةً على جبينه الصغير ، ولم يترنَّم بصوتها وهي تداعبه ليستيقظ ويتجهز لمدرسته ، ولم تشعر يداه بدفء يديها عندما كانت تمسح على وجهه وعنقه وتمشط له شعره . عند ذلك بدأ يفهم معنى الموت فهماً حقيقياً عملياً لا نظرياً ، وسرعان ما امتلأ حلقه غصة بسماع صوت أخته الرضيعة تبكي طالبةً صدر أمها ، فيبدأ البكاء ليشاركها ألمها وحرمانها . . . لقد طافت عليهما أيام مليئة بالحزن والكآبة .

وحاول الأب جهده أن يكون رحيماً ويأخذ دور الأم والأب بآنٍ واحد ،

واستطاع أن يحقق شيئاً من ذلك ، فكانت ابنته الصغيرة سلوى فؤاده وريحانة عمره ، وكم من الآباء من كانت بناتهم الصغيرات ريحانة تزين قلوبهم وتملأ حياتهم تألقاً وعبيرهم عطراً ، ولا سيما إذا كان ذلك الأب منسجماً مع نفسه صادقاً مع ربه.

وسرعان ما بدأت وساوس الناس ـ ولاسيما الأهل منهم ـ يحثونه على الزواج من امرأة ثانية ، ويصدرون هذا الكلام بقالب النصيحة ، والحقيقة أنها نصيحة يكمن سمُّها في عسلها ، فقد أثبتت التجارب والقصص والمشاهدات بأن زوجة الأب غالباً ما تكون قاسيةً مستبدة ، حتى أن الأجيال قد ابتدعت أمثالاً عن صعوبة هذه الحالات ، فالحقيقة لا تخفى على أحد. ولو أن النساء علمْن خطورة التعامل مع الأيتام ، لفضَّلْن العنوسة على الزواج من رجل معه أولاد قد ماتت أمهم ، فإن ظلم اليتيم من الموبقات المهلكات.

وقد قال ﷺ: «إياكم وبكاء اليتيم فإنه يسري في الليل والناس نيام»[1].

وورد أيضاً بأن اليتيم إذا بكى نادى الجبار في عليائه قائلاً: «من الذي أبكى عبدي هذا الذي غيَّبْتُ أباه تحت التراب»[2]. وقال ﷺ: «اللهم ، إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»[3].

ويندر أن تجد امرأة قادرة على ضبط مشاعرها في تعاملها مع أولاد زوجها؛ إذ سرعان ما تطفو غريزة الأنثى ومشاعرها على سلوكها ، فتنسى يتمهم وانكسارهم ، وتمضي بسلوك عنيف عاصف يدمر كل ما أمامهم. ولعل بعض النساء يستطعن ضبط غرائزهن ، ولكنهن حالات نادرة ، والقاعدة الفقهية تقول: (ليس للنادر حكم).

ومع هذا كثر الإلحاح على الأب ليتزوج من امرأة أخرى ، وللإلحاح تأثير على الآذان والعقول كتأثير السحر... وتزوج الأب امرأة حسناء ، ظاهرها

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٨٢) ، ح١٥١٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سنن ابن ماجه (١١/ ٧٤) ، ح٣٦٦٨.

يفيض رقة وعذوبة ، ولكن باطنها يفيض شراً وسفاهة. ولما وقعت عينا صغيرنا على هذه المرأة شعر بخوف عاصف يجتاحه ، فكأنه تجاوز بفراسته ظاهرها ورأى باطنها ، وهذا أمر شائع بين الأطفال؛ لأن حاستهم السادسة لم تتلوث بعد ، فهم يشعرون بمن أمامهم مهما تقنّع بالمحسنات والملونات.

ودارت الأيام... وكانت في بدايتها هادئة آمنة ، ثم غدت عاصفة تحمل حجارة من سِجّيل تصيب كل جميل وبريء. وإن العاصفة لتمر بالحقل مرة في الشهر فتكسر الأغصان وتقصف الفروع ، ثم تجيء الأمطار فتروي الأرض ، ثم تطلع الشمس فتحنو على الغصن الذي انكسر وتنبت معه غصناً جديداً. أما عاصفة الدار فقد كانت تهب كل ساعة ، فتكسر قلب الصغير وقلب أخته ، ثم لا تجبر هذا الكسر أبداً.

لقد انسعرت هذه المرأة كضبع هائج ، فكانت تشتم الصغيرين ، وتنهال عليهم ضرباً ، وتحاول جهدها أن تملأ قلب الأب حنقاً وحقداً ، وذلك بتأليف الروايات والأكاذيب التي تكرّهه بأولاده ، فبدأ الرجل يدخل عابساً مكفهر الوجه لا يضحك إلا في غرفة نومه مع تلك الأفعى. وكم طرقت آذان الصغيرين ضحكات هذه المرأة الرنانة وقهقهات ذلك الأب الغافل الجاهل ، في الوقت الذي يكون فيه وجها الصغيرين يغرقان بالدمع.

ورزقت هذه المرأة بطفلة صغيرة ، وكانت تكبر كل يوم في حضن والديها ، وترسخت المعاملة القاسية لليتيمين أكثر ، وغدا التمييز واضحاً بين الأختين؛ فبإمكانك أن ترى اليتيمة هزيلة ذات وجه شاحب ونظرة مقهورة وهي ترتدي حلة رخيصة ، ولا يكاد القهر يغادر عينيها إلا حين تخلو بأخيها ، وكم باتت طاويةً يعضها الجوع ، والأب وامرأته يتململان من التخمة...

وتحولت طفلتنا إلى خادمة في بيت أبيها عند امرأة أشبه بالمجوس ، فهي لا تفقه إلا لغة الصياح والشتم والضرب ، بالإضافة إلى تمرسها بفنون الغواية ليلاً؛ لتجذب إليها ذلك الجاهل بشنبه العريض منحنياً عند قدميها.

وغدت اليتيمة متخصصة بالكنس والمسح وتنظيف الأطباق ، وإذا قصرت يوماً بالخدمة والامتثال فالعصا جزاؤها والجوع ضجيعها. بينما ترى أختها من

هذه المرأة تتراقص من غرفة إلى غرفة ، ويكفي أن تشير بإصبعها ليُلبَّى طلبها .

وكم أعجب من هذا الأب الذي يستطيع أن يميز بين ولديه! فإني أب لابنتين ، وقد جرّبت يوماً أن أقبّل إحداهما قبلتين وأقبل الأخرى قبلة واحدة ، فإذا بثورة عارمة من ابنتي تطالبني بالعدل ، فما بالك في حال هذا الظالم؟

وقد قال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النِّحَل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف»[1] .

وقد ورد في كتب السُّنَّة أن النبي ﷺ دعاه رجل من الأنصار ، فجاء ابن له ، فقبَّله وضمه وأجلسه إليه ، ثم جاءته ابنة له ، فأخذ بيدها فأجلسها ، فقال النبي ﷺ: «لو عدلت كان خيراً لك ، قاربوا بين أبنائكم ولو في القُبل»[2] .

لقد كانت اليتيمة مصابة بالهزال؛ لأن امرأة أبيها كانت تمنعها من الطعام ، فإذا نصبت المائدة وجلس الأب نادى على يتيمته فأقبلت فرحة ، فإذا بامرأة أبيها ترمقها مهددة وكأن وجهها ضبع مفترس ، فتبتعد الفتاة عن المائدة متظاهرة بالشِّبع .

أليست هذه المرأة مسلمة؟ ألم تسمع بحديث رسول الله ﷺ: «من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة»[3] ؟! .

وقوله ﷺ: «ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم شيطان»[4] .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»[5] .

إن هذه الأحاديث النبوية تطالب الغرباء بالإحسان إلى اليتامى ، فكيف بهذه الفتاة وهي على مائدة أبيها؟!

---

(١) صحيح ابن حبان (٢١/ ٢٤٩) ، ح٥١٩٥ .
(٢) مصنف عبد الرزاق (٦/ ١٠٠) ، ح ١٦٥٠١ .
(٣) سنن الترمذي (٧/ ١٥٣) ، ح ١٨٤٠ .
(٤) المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٢٠١) ، ح ١٦٤٩ .
(٥) مسند أحمد (١٨/ ١٩٩) ، ح ٨٦٥٧ .

لقد نُكبَ اليتيمان بالأم والأب معاً ، بل لو كان الأب ميتاً لكان ذلك خيراً لهما. إن مجرد المسح على رأس اليتيم من شأنه أن يملأ القلب رقةً وعاطفةً ويسقط الذنوب عن الماسح ، ولكن قلوب هؤلاء الناس امتلأت قسوة يحسدهم عليها عتاة أهل الجاهلية.

لقد كان بوسع هذه المرأة ـ لو أحسنت لهذين اليتيمين اللذين امتحنها الله بهما ـ أن تزاحم المصطفى عليه الصلاة والسلام على باب الجنة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مسح رأس يتيم أو يتيمة لم يمسحه إلا لله ، كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» وقرن بين أصبعيه[1].

فتصور كم أهدرت هذه المرأة من حظ عظيم! لقد كان بوسعها أن ترتقي ليزاحم كتفها كتف المصطفى عليه الصلاة والسلام على باب الجنة ، ولكنها اختارت أن تقذف نفسها في دركات الجحيم.

وقد ورد أن امرأة ماتت ، فشوهدت في الرؤيا بعد عشرين عاماً من موتها ، فسُئلت عن هذا الغياب الطويل ، فأجابت: كنت سجينة ، فقيل لها: ولمَ؟ قالت: كنت أقدم كأس الحليب لولدي صافياً ، وأخلط كأس ابن زوجي بالماء ، ولذلك سجنت عشرين عاماً!

ودخل الأب يوماً إلى بيته متجهم الوجه كعادته ، فلما رأى ابنة هذه الأفعى انفرجت أساريره وأخرج قبضة من أفخر الحلوى (الشوكولا) فملأ بها يديها ، فرمقته ابنته الصغيرة اليتيمة طامعة بواحدة ، فألقى إليها بقطعة كأنها هرة تعاني من الجرب ، فتلقفتها اليتيمة بسرور وكأنها حصلت على تحفة نادرة ، ولم تأكلها دفعة واحدة بل أخذت تقضم كل يوم شيئاً يسيراً منها محاولةً الإطالة في عمرها!

وفي أحد الأيام صرخت الفتاة المدلَّلة مستغيثة بأمها التي سرعان ما لبَّت النداء ، وإذا بها تشير لقطعة الشوكولا التي بيد اليتيمة ، فانهالت الأم على

---

(١) مسند أحمد (٤٥/٢٤٨) ، ح ٢١٢٥٣.

اليتيمة بأبشع الألفاظ ، وانتزعت القطعة من يدها ، فانفجرت اليتيمة ببكاءٍ مرير. وكان أخوها يرقب هذا المشهد ، وسرعان ما هبَّ لنجدة أخته قائلاً: ابتعدي عن صغيرتي أيتها الظالمة ، فلطالما عانينا منك. فخاطبته: أيها الجاحد ، يا ناكر الجميل ، ما أخبثك... ولكن من شابه أمه فما ظلم ، تباً لك ولأمك المقبورة ، ألحقك الله بها! فقال الصغير بلَوعة وأسى: لا تشتمي أمي وإلا.... فما كان منها إلا أن صاحت به: أتهددني بالضرب؟ والله لأجعلن أباك يسلخ جلد ظهرك سلخاً.

وما أن رجع الأب مساءً إلى المنزل حتى شكت المرأة الغلام اليتيم ، فانهال الأب الجهول عليه ضرباً وشتماً! وفي تلك الليلة نام اليتيمان معاً على فراش واحد ليمسح كل منهما دمعة الآخر ، ثم قام الصبي ليلاً فقال لأخته: هلمّي بنا نفرُّ من هذا العذاب إلى أمّنا ، فإنها تنادينا....

وفي صباح اليوم التالي من عام ١٩٤٦ م استيقظ سكان دمشق على خبر مفزع ضجَّ له الأهالي ، وهو موت طفلين صغيرين على قبر أمهما من البرد.

لقد كان مصير هذين اليتيمين الموت في المقبرة؛ سعياً منهما للَّحاق بأمهما الرؤوم.

أذكر في نهاية هذه المأساة الواقعية نداء الجبار عز وجل من علياء عرشه: «من الذي أبكى عبدي هذا الذي غيبتُ أباه تحت التراب»....

* * *

الحمو الموت

إن علم الله الأزلي المطلق هو الحقيقة الصائبة التي بثها عز وجل في كتابه وسنة نبيه ، ولا شك أن المصطفى ﷺ لم يأتِ بالشريعة من بيت أبيه أو جده ، ومصداق هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1] .

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الحمو الموت»[2] ، ويقصد بالحمو : أهل الزوج من أب وأخ . . . . ، وفي شرح الحديث : إن الناس كانوا يتباسطون في الدخول على النساء ، ولذلك نبه عليه الصلاة والسلام على ذلك ، فقال : «إياكم والدخول على النساء» ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو؟ . قال : «الحمو الموت» . ومعنى ذلك أن خطره أعظم ، والتساهل فيه يكون ذا وقع قاتل .

وفي حديث آخر : «لا تَلِجُوا على المغيَّبات ، فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم» قلنا : ومنك؟ قال : «ومني ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم»[3] . والمغيَّبة : هي المرأة التي غاب عنها زوجها لسفر أو جهاد .

وأكثر الناس لا يشملون الأب والأخ بهذا النهي .

والمؤسف أن الشعوب العربية والإسلامية قد توارثت عادات وتقاليد خاطئة ، فدخول الأحماء على المرأة أمر مألوف ، ومنعهم من ذلك يُعَدّ سوء

---

(١) النجم : ٣ ـ ٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٦/ ٢٥٧) ، ح ٤٨٣١ .

(٣) سنن الترمذي (٤/ ٤٠٥) ، ح ١٠٩٢ .

نية ، فهم يتبعون الأعراف السائدة ، ويضعون حديث المصطفى ﷺ وراء ظهورهم.

وأذكر أن الأمهات في الشام ـ ولاسيما الجاهلات منهن ـ كنَّ يجبرن زوجات أبنائهن على خلع الحجاب أمام إخوة أزواجهن ، وإذا رفضت المرأة ذلك انهالت عليها بالاتهامات قائلة: أتريدين أن تشككيني بشرف أولادي وكرامتهم وعفتهم؟ أتتهمينهم بسوء الظن والغدر؟ أتسعين لتمزيق اللُّحمة بين أولادي؟ أتريدين التفريق فيما بينهم؟ . . . .

ونتيجة ذلك رفعت الأغطية عن رؤوس النساء ، ودخل الحابل بالنابل ، لا سيما أن البيوت كانت مشتركة وتضم أكثر من عائلة واحدة ، وكم سمعنا من قصص ومآسٍ نتيجة هذا التساهل . . . .

أذكر أن شيخنا وقف يوماً على المنبر خطيباً وقد اشتعل غضباً ، واحمرَّ وجهه ، وانتفخت أوداجه ، وعلا صوته وهو يقول: والله الذي لا إله إلا هو ، لقد جاءني شاب في حالة ذهول يقول لي شاكياً: ماذا أفعل؟ إن أبي يُراود زوجتي عن نفسها ، ويلاحقها من غرفة إلى غرفة ، وأنا أقيم معه في بيت واحد لضيق ذات اليد!

ولا عجب من ذلك ، فرسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وإن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فسحقاً لشبيه رجل يُراود حليلة ولده ليقع بها. ثم صاح الشيخ على منبره صيحة اهتزت لها جدران المسجد قائلاً: لعنة الله على هذا الأب ، اخرج بزوجتك وانجُ بعرضك ، ولو سكنت في قن دجاج.

وأذكر في حادثة مشابهة شاباً أتاني يوماً مصفر الوجه مرتجف اليدين ، وهو يقول: انصحني ، ماذا أفعل؟ أأتكلم أم أسكت؟ وعندما هدّأت من رَوعه وسكَّنت من نفسه قال: دخلت صدفة إلى بيت صديق لي دون أن أستأذن ، ولما دفعت الباب سمعت أصواتاً ، فظننت أنها أصوات استغاثة ، فتتبعت الصوت ، ودخلت إحدى الغرف ، فإذا بوالد صديقي يعاشر زوجة ابنه معاشرة الأزواج!

وأكاد لا أصدق رواية هذا الشاب لولا علمي بصدقه وطيب مسلكه ، وعلمي أيضاً بأن أهل هذه المنطقة لا يحكمون إغلاق أبوابهم ، بل إن بعضهم يلقي ستارة ويبقي الباب مفتوحاً طوال النهار . . . . إنه الواقع الأليم ، لقد انحطت الأخلاق انحطاطاً عجيباً .

وهذا شاب ثالث يقيم مع زوجته في المدينة ، وقد نجح أخوه في الثانوية العامة ، وأراد السكن في العاصمة مع أخيه؛ ليتمكن من متابعة دراسته الجامعية .

يقول الشاب متحدثاً عن نفسه : عندما رفضت إقامة أخي في منزلي لغيرةٍ في نفسي ، ولنخوة غرسها الله في كياني ، ثار عليّ أهلي ثورةً عارمةً ، واتهموني بسوء الظن وبالحقد على أخي ، وهددوني بأن غضب الله سينزل عليّ إن لم أفعل .

وامتلأ الشاب حيرة ، فتارة يقول لنفسه : إن أخي شاب صالح ، وإن زوجتي امرأة ثقة ، وهذه وساوس شيطان ، ويجب مقاومتها . وتارة يقول : ما يدريني بما يكون غداً ، وما تكون عليه الحال أثناء سفري؟ أليست الخلوة مدعاة لجميع الاحتمالات؟ .

ورأى أن يستشير أحد أصدقائه ليخرجه من حيرته ، فأشار عليه صديقه الجاهل بالدِّين بالسعي لإرضاء أبيه وأمه ، فالوالد أوسط أبواب الجنة ، وقد قال ﷺ : «الوالد أوسط أبواب الجنة ، فمن شاء أخذ ، ومن شاء ضيّع»[1] . وقال أيضاً : «الزم رجلها ، فثمّ الجنة»[2]

ولو أنه استشار عالماً بالدِّين لذكَّره بقول المصطفى ﷺ : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[3] .

---

(١) مسند أحمد (٤٤/ ٢٠٢) ، ح ٣٠٧٣٣ .
(٢) سنن ابن ماجه (٨/ ٢٨٧)، ح ٢٧٧١ .
(٣) مسند أحمد (٣/ ٤٧)، ح ١٠٤١ .

وقوله ﷺ: «الحمو الموت»[1].

وبعد أخذٍ وردٍّ أذن لأخيه بمساكنته ، وحَظِيَ بذلك القرار على رضى أبيه وأمه ، وسارت الأمور على خير ما يرام ، فقد كان أخوه مؤدباً غاضاً من طرفه ، متمثلاً قول عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكان الحال مطمئناً ، بحيث شعر الأخ الكبير بضآلة عقله وانجرافه خلف الوساوس الشيطانية عندما رفض في البداية إقامة أخيه معه ، ودارت الأيام والسنوات ، وأنجب الرجل ثلاثة أطفال ، وكانت حياتهم هادئة مستقرة.

وفي ليلة ماطرة أثناء عودته إلى بيته رأى امرأة مستلقية على حافة الطريق ، وبجوارها عجوز تستغيث ، فأخذته النخوة ، وأسرع إليهما مادّاً يد العون ، وإذ بالمرأة في حالة مخاض ، تكاد تلد على الرصيف ، فحملهما في سيارته متجهاً إلى أقرب مشفى ، وأبدت العجوز امتنانها وشكرها ، ولم يفتر لسانها عن الدعاء له والثناء عليه لنخوته العربية الأصيلة. وأدخلت المرأة إلى غرفة التوليد ، وأبت شهامته أن يغادر المشفى قبل أن يطمئن عن حالها.

وكان تعباً ، فأخذته سِنَة من النوم ، ليفيق بعد دقائق على صوت رجال الشرطة ينهرونه ، والعجوز تبكي وتصرخ: هذا هو المجرم... اقبضوا عليه!

وأصيب صاحبنا بالذهول ، ولم يكن يدري ما يدور حوله ، وازداد ذهولاً ودهشةً عندما رأى العجوز ترفع يديها إلى السماء وهما ترتجفان قائلة: ويل لك من الله أيها الفاجر.... قهرك الله كما قهرتنا.... إنه من دمك أيها الجاحد. وازدادت صدمته عندما فاجأه الضابط بالاتهام الموجه ضده: إن هذه المرأة تدعي أن لك علاقة بابنتها ، وأن هذا المولود طفلك ، ولكنك تتنصل الآن من نسبته إليك!

ولم يستطع أن يفيق من ذهوله ، أو أن يدافع عن نفسه ، ولكن سمات

---

(١) سبق تخريجه.

البراءة في وجهه أثارت تعاطف الضابط معه ، وللعيون بوح ولغة يعلمها أهل الفراسة. ونتيجة لتعاطف الضابط معه أسرع في التحقيق ، وقاموا بأخذ عينات من دمه لتحليلها ، وكم كانت فرحة الضابط كبيرة وهو يخبره بأن نتيجة التحليل أثبتت كذب المرأة وزيف ادعائها ، وأنه غير قادر على الإنجاب ، وأخبره أنه سيخلي سبيله مباشرة.

لكن هذه البشرى كانت صاعقة رمت به أرضاً ، وتعجب مَنْ حوله لما أصابه ، ولما أفاق طلب من الضابط إعادة التحليل ، ولكن النتيجة لم تتغير. وفي هذه الأثناء بدأ الأطباء وضابط الشرطة يفهمون ما جرى ، وعلموا بأن له ثلاثة أولاد.

وقامت الشرطة باستدعاء الزوجة للتحقيق ، ولم تستطع الإنكار ، فاعترفت بأنها على علاقة عاطفية مع أخي زوجها ، وأن بينهما ما يكون عادة بين العشاق ، وأن أولادها الثلاثة ثمرة تلك العلاقة!

لقد عاش الزوج المخدوع عشر سنوات يجتهد فيها ، ويكد ويتعب ، لينفق على عشيقة أخيه وأطفالها ، وقد تعلق بالأولاد تعلقاً شديداً ، بل كان مستعداً ليقطع من جسده في سبيل سعادتهم. ولا عجب في ذلك ، فهو يراهم جزءاً منه ، بل ثمرة فؤاده وعصارة أمله. ولم يحتمل عقله هذه الفاجعة ، فقد كانوا في عقله يقيناً ثابتاً ، ثم نسف هذا اليقين نسفاً ، وتبعثر في الآفاق ، وتبعثر معه عقله وقلبه وجميع آماله.

ونتيجة لذلك فقد الزوج عقله ، وهو الآن نزيل إحدى المصحات النفسية ، وأما الأخ العشيق فقد تم القبض عليه ليمضي أحلى سنوات شبابه أسيراً خلف القضبان ، وأما الضحية الحقيقية فهم هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين صُعِقوا بحملهم من أحضان أسرة دافئة لمأوى اللقطاء الذي تشرف عليه الدولة ، وبعد أن كانوا يتنقلون من صدر أب عطوف إلى حضن أم حانية ، أخذوا يتنقلون من موظف جافٍ إلى موظفة شديدة الغضب سليطة اللسان كثيرة الضرب. ولم يقف الأمر هنا ، بل جُرِّدوا من نسبهم الأول ، ولم يلحقوا بأبيهم

الفيزيولوجي عملاً بالقانون المتفق مع قوله ﷺ: «الولد للفراش ، وللعاهر الحجر»[1].

ربما تعجز عقولنا عن تصديق مثل هذه القصة ، ولكنها قصة من واقع حياتنا اليوم ، جرت أحداثها في إحدى الدول الإسلامية ، وما زالت الأوضاع على هذا حتى تاريخ كتابتي لهذة الأحداث. ولعلها مع ألمها وقسوتها تعلمنا درساً يجب أن لا ننساه ، ولعلَّه ليس من الحكمة دومًا الاستجابة لأوامر الأهل ، فكثيراً ما تكون نابعة من أعراف بالية وعقول متحجرة وإرث مليء بالآفات. . .

* * *

(١) صحيح البخاري (٧/ ٢٠٥) ، ح ١٢٢٤.

نضعه في الصندوق

إنها قصة فتاة نشأت بلا ضوابط ، فالأب قد غرق في عرقه مهرولاً خلف رغيف خبزه ، و الأم تمضي نهارها لاهثة خلف صغارها ، لا تكاد تجلس حتى تقوم ثانية ، ولا تكاد تتمدد حتى ترقد من شدة التعب ، فطلبات العائلة لا تكاد تنتهي. أما الفتاة الشّابة فلها مجموعة من الأصدقاء قد ملكوا عليها عقلها وليلها ونهارها ، وكانت تحاول أن تقلدهم وتسير سيرهم. وكان المجتمع المحيط بها ـ على فقره ـ متحرراً ، لا يبالي أهله بكيفية خروج بناتهم أو لباسهن ، أو أحاديثهن مع شباب الحيّ.

وكلنا يعلم خطورة هذا الجيل وانجرافه وراء الفتن وتفتُّحه المبكر؛ إذ يندر أن تجد فتاة تجاوزت السابعة عشرة من عمرها لا تعلم دقائق ما يحدث ليلة الزفاف. أضف إلى ذلك جهود الصهيونية الحثيثة في نشر تلك الأفلام عبر الفضائيات؛ لتكون معولاً هدَّاماً لهذا الجيل ، وليت الغرب اكتفى بذلك فحسب ، بل بدأ يبذل ضغوطاً على الحكومات العربية والإسلامية لتدريس الثقافة الجنسية للمراهقين والمراهقات على مقاعد الدراسة!

وإذا ما قامت أسرة بسدِّ هذه المنافذ فسرعان ما يقوم الهاتف الخلوي بسدِّ ذلك النقص. فقد رأيت منذ أيام مجموعة من فتيات المدرسة الإعدادية وقد خرجن من مدرستهن يتضاحكن ، ويتبادلن مقاطع من هذه الأفلام عبر (البلوتوث) ، الذي يندر أن تجد فتاة لا تحمله ، وكانت المصيبة أكبر وقعاً عندما اجتمع مع كل فتاة صديقها الذي ينتظرها على باب المدرسة ، وأخذوا يشاهدون هذه الصور معاً ، ولا يخفى على كل عاقل مدى تأثير هذه الأفلام في تهييج العاطفة ، ورغبة المشاهد في تطبيق ما يراه عملياً.

أما فتاتنا فقد اندمجت مع أصدقائها في تلك الحياة ، وبقي الأهل على حالهم ، فأكبر همهم الإتيان بالطعام واللباس ، أما المتابعة والتوجيه والتربية فهي مسؤولية الأقمار الأوروبية والفضائيات البولونية. لقد انطلقت الفتاة مستسلمة للتيار الذي كان عنيفاً وجارفاً تصعب مقاومته.

وبدأت الرحلات المدرسية والمعسكرات الصيفية ، وخرجت الفتاة مرةً في رحلة قصيرة مع بعض الأصدقاء في سيارة صغيرة ، ووقفت الأم كعادتها تودع ابنتها وتقول لها: الله معك. فضحكت الفتاة ساخرةً وقالت: الله؟ ليس له مكان بيننا ، فالسيارة مليئة بالشباب والشابات! ثم التفتت إلى أمها ساخرة وقالت: لا تحزني ، سنضعه في الصندوق. وأفلت التعساء بالضحك ، ثم انطلقت السيارة...

وفي الطريق ظهرت أمام السيارة مركبة ضخمة ، فحاولوا الابتعاد عنها ، ولكنهم اصطدموا بحافة الطريق ، فارتمت السيارة واشتعلت فيها النيران ، فوالله لو أنك نظرت إلى الجثث لما ميزت بينها، فقد تفحمت كلها وغدت قطعاً من الفحم. ولكن المعجزة تكمن بأن النيران لم تصل إلى الصندوق في السيارة ، وقد كان فيه بعض الأطعمة والبيض ، ووالله الذي لا إله إلا هو إن البيض بقي داخل الصندوق كما هو ولم يتكسر.

إنها رسالة إلهية... علم ذلك من علم ، وجهله من جهل.

وأنتهز الفرصة لأحذر الشباب من السخرية بالذات الإلهية ، فهي كفر بواح وفعل مخرج عن الملة ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (١).

والكفر يكون بالقول أو بالفعل أو بالاستهزاء؛ فالقول: كأن يشتم الذات

---

(١) التوبة: ٦٥ ـ ٦٦.

الإلهية ، والفعل: كأن يسجد لصنم ، والاستهزاء: كأن يسخر من إحدى شعائر الإسلام. فتقليد حركات المصلي سخرية مكفرة ، والاستخفاف برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر مخرج عن الدِّين . . .

والمؤسف أننا كثيراً ما نرى أناساً يكفرون أثناء غضبهم ، فيشتمون الدِّين أو الله! واعلم أن هؤلاء قد كفروا وضاعت حسناتهم التي فعلوها طوال حياتهم ، فمن شتم الدِّين وكان عمره ستين عاماً مثلاً فقد ضاعت صلواته وصيامه وزكاته ، وكل ما عمل من خير في سنوات عمره الستين المنصرمة ، ويجب عليه أن يغتسل غسل الإسلام وينطق بالشهادتين من جديد ، وليعلم أنه قد أهدر كل سنواته الماضية ، وإن مات قبل أن يجدد إيمانه مات كافراً. فشتم الذات الإلهية أو الإسلام ، والاستهزاء بشعيرة من شعائره أشبه بالرصاصة الخارقة الحارقة المفجرة ، فكما تُزهق الرصاصة الروح ، تُزهق هذه الأفعال الدِّين.

وأقول لمن يتجاسر ويستطيل ويطيل لسانه كأفعى تقذف بالسم الناقع يشتم الذات الإلهية: أيتجرأ أحدكم أن يشتم ضابطاً أو حتى شرطياً صغيراً؟ إن أحدكم إذا هَمَّ بذلك فسيتلعثم لسانه وترتجف ركبتاه خشية من خوفه من ذلك العبد! فما الذي يجرئ الأحمق على رب العبيد؟

نعم . . . لقد تفحمت الجثث وسلِم البيض على رقته. فاقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [1] .

وقد ذكرني هذا بحادثة مشابهة؛ فقد أخبرني من أثق به أن خبيراً أجنبياً مشرفاً على إحدى المصانع كان يجول بين العمال والآلات ، فذكر أحدهم اسم الله عز وجل ، فلما سأل الخبير عن ترجمة ذلك أُخبر بأنه الله تعالى ، فاشمأز اشمئزازاً عجيباً ، وكأنه رأى منظراً بغيضاً أو شم رائحةً كريهةً ، وانهال بالسب والشتم على الذات الإلهية ، فوالله الذي لا إله إلا هو لم تمضِ إلا لحظات قليلة

---

(١) البروج: ١٢.

حتى علق سرواله بإحدى مسننات الآلات ، فدفعته الآلة حتى ارتطم بالسقف ثم وقع على الأرض ميتاً.

فكن ـ أيها المسلم ـ مع الله ، ولا ينسينك حلمه بطشه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) التوبة: ٦٥ ـ ٦٦.

نصيحة من وراء القضبان

إنها قصة فتاة في عمر الزهور ، فلندعها تتحدث عما شجاها ، ويسيل قلمها بعبراتها . . .

تقول : كنتُ في الثامنة عشرة من عمري فتاة حالمة عاطفية ، يتراقص قلبي أمام أغنية فيها شيء من المشاعر الإنسانية السامية ، وتثير شجوني الألحان العذبة الدافئة ، فتارة تبكيني وتارة تضحكني .

ولا يخفى على القارئ أن الفتيات اللواتي يتصفن بهذه الرقة يكن أكثر ذوباناً أمام الكلام المعسول ، بالإضافة إلى حداثة السن وقلة التجارب .

تتابع قائلة : لقد رأيت ذلك الشاب الأنيق الوسيم ينتظرني أمام باب مدرستي مبتسماً ، وحاول أن يقترب مني ليكلمني ، ثم بدأ يسير خلفي مرسلاً عبارات الإطراء والغزل ، ولم أكن قد تعرضت قبل ذلك لمثل هذه العبارات ، فاشتعلت خجلاً ، وبدأ العرق يتصبب من جبهتي ، إلى أن وصلت أخيراً إلى المنزل وعقلي لا يكاد يدرك ما يجري .

واستمرت ملاحقته عدة أيام ، كنت أعيش فيها صراعاً مع نفسي ، وتتنازعني قوتان ؛ أولهما تقول : إنه ذئب غادر يدور حولك لكي يفترسك ، ثم يقذف بك من النافذة بعد أن يكون قد سلب منك كرامتك .

ويأتي الجواب من القوة الثانية قائلاً : وهل كرامة الفتاة تنحصر في غشاء بسيط إذا ما خدش انحدرت من قمة الكرامة إلى أودية الذل والهوان؟ إلى متى ستبقى عقولنا ضئيلة؟ ولماذا نحرم على أنفسنا كل شيء ممتع؟ لماذا يعشق

مجتمعنا القضبان؟ ولماذا يعادي أهلنا الانطلاق والتحرر؟ وما العيب في أن أتعرف إليه وأختبره ، فربما أحبه ويكون لي زوجاً ونستظل سويةً في بيت الزوجية ، في قفص ذهبي يفيض حباً وحلماً وطمأنينة؟

ثم يأتي الجواب : إن كان هدفه نبيلاً فلماذا يلاحقني كاللصوص متسللاً عبر النوافذ؟ ألا يستطيع أن يتحلى بالصدق والشجاعة فيطرق الباب ليخطبني من أبي؟ لماذا يريد اللقاء خارج المنزل أولاً؟ . . . .

واستمر هذا الحوار الداخلي ، وعاشت فتاتنا أياماً صعبة تتقاذفها أفكار كالأمواج المتلاطمة ، حتى قررت أخيراً مقابلته ، وعندما خرجت من مدرستها رأته واقفاً بسيارته الفارهة ينتظرها مبتسماً وقد لمعت في عيونه سعادة غامرة ، فبادلته بابتسامة ساحرة جعلته يطير من الفرح ، وفتحت باب السيارة وركبت أمامه . . . .

قال لها : أفي حلم أنا أم في يقظة؟ والله لا أكاد أصدق أنك معي وفي سيارتي!

قالت له مبتسمة : سأختبر صدقك ونواياك ، لأعلم إن كنت من الصادقين أم من العابثين اللاهين .

وطار بها في سيارته مسرعاً يسابق السحاب ، ولعب الشيطان لعبته ، ودارت النشوة في رأسيهما ، وبدأ التباسط ، وأصر أن يحتسيا القهوة في أحد المطاعم المفتوحة للعشاق ، فاستجابت لطلبه ، وبدأت الأغنية المعروفة التي تبدأ بالغزل والرقة والوعد بالمصداقية ، ثم : إن علاقتنا ستنتهي بالزواج ، وإن الأسلوب الحضاري يقتضي تعرف الفتاة على الشاب خارج نطاق الأسرة ، وإن طريقة آبائنا وأجدادنا قد انقرضت ، ولكل زمن دولة ورجال ، ولا بد أن تتحلى الفتاة بالثقة بنفسها والثبات في شخصيتها ، فلماذا الخوف والتردد؟ ألا ترين أن القيود والكوابح التي فرضت على المرأة في مجتمعاتنا الشرقية التي تتسم بالتخلف كالأسوار الحديدية التي عصرت معصميها حتى وصلت لحد لا يطاق؟ ولماذا لا تفرض هذه القيود على الرجال أيضاً؟ لماذا منح المجتمع الرجال

السطوة على النساء؟ ما الذي ميز الرجال حتى يتحكموا بشؤون الفتيات تحكم السجان بالأسرى؟

ثم أضاف: إنهم يرون أن كرامة الفتاة تزهق بعلاقة حب مع شاب ما ، ولا تزهق عندما يقف أخوها الصغير يصرخ في وجهها ويقمعها كأنه غضنفر هائج ، وجميع أفراد الأسرة يباركون عمله ، وكأنه راعي الفضيلة والعفاف ، وما عليها إلا أن تتضاءل بين يديه كشاة أصابها ماء المطر!

ثم قال: تخيلي أن شاباً أقام علاقة عاطفية مع إحدى الفتيات حتى وصلت هذه العلاقة إلى الفراش ، ثم علم والدا الشاب والفتاة بهذه العلاقة المرفوضة اجتماعياً ، بالله عليك ألا تظنين أن والد الفتاة ربما أقدم على ضربها وشتمها وتعنيفها؟ بل ربما ذبحها ذبح النعاج ، وجميع من حوله من الأقرباء يؤيدون عمله ويعدونه ثأراً لشرفه ويعذرونه فيما فعل ، بل إن قتلها في بعض الأحياء المتعصبة يعد واجباً لا مناص منه ، وإن لم يفعله لُطخ بالعار مدى حياته ، ثم يستشهدون على مشروعية ذلك بأمثال موروثة ارتقت في عقولهم لدرجة القداسة ، مثل قولهم في اللهجة العامية: (إصبعتي عابت فقطعتها). . . . وأما والد الشاب فربما وجه لولده بعض الكلمات القاسية إذا كان صاحب فضيلة وقدر ، وما أندر ذلك ، أما ما يحدث عادة فهو أن أبا الشاب يبتسم ابتسامة ماكرة ، ويقول مغتبطاً: لقد أصبح ابني رجلاً تفتن به النساء ، ثم يردد مثلاً دارجاً: (الشاب إذا زنى كالسيف إذا انجلى)!

لقد صدق هذا الشاب فيما يقول مع كونه في الوقت ذاته ذئباً ماكراً ، وكما قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «صدقكَ وهو كذوب»[1] .

وقول علي رضي الله عنه: «كلمة حق أريد بها باطل»[2] .

فالمرأة في مجتمعاتنا العربية ما زالت تعاني كثيراً من الظلم والانتهاك ،

---

(١) صحيح البخاري: (١١/ ٥٣) ، ح٣٠٣٣.
(٢) صحيح مسلم: (٥/ ٣٠٩) ، ١٧٧٤.

لكن مما لا ريب فيه أن الشرع بريء من هذا الظلم ، فالعرف الاجتماعي وتحجر عقول الناس هما السببان الحقيقيان لهذا القهر الذي يمارس على المرأة.

لقد استطاع الشاب بخبثه واحتياله أن يتلاعب بعقل الفتاة ، معتمداً على التناقضات الاجتماعية السائدة ، مع حسن مداعبته لأوتارها العاطفية ، فالفتاة كآلة الكيتار؛ تتعشق الحب والرومانسية ، ولا يكتمل استقرارها النفسي إلا بعثورها على عازف ماهرٍ صادقٍ يداعب هذه الأوتار ليسمع أعذب الألحان. ويبدو أن صاحبنا قد خطا في هذا الميدان خطوات واسعة ، فخبره وعلم مداخله ، وبات صاحب خبرة فيه ، فاستطاع جذبها إليه. ويوماً بعد يوم... ولقاءً إثر لقاء بدأت المشاعر تتحرك والعواطف تلتهب ، وبعد إلحاح طويل وافقت على طلبه بزيارة منزله الصغير الذي سيكون بيت الزوجية ، وستتفجر فيه براكين الأشواق بأمان تحت مظلة الأسرة!

ووقعت الفتاة في الفخ ، فقد كان لصاحبنا نشاط مهم في استثمار مثل هذه الخلوات.... واقترب منها ، فبدأت الغرائز تستعر كأنها نار تأكل بعضها بعضاً ، وتضاءلت الممانعة ، وكان ما كان!

واستمرت هذه العلاقة مدة من الزمن حتى تململ الشاب من الاغتراف من هذه الكأس ، وزاد في مله منها شدة إلحاحها عليه بتصحيح الخطأ والإسراع بالزواج ، وكعادة أمثاله من اللصوص كان يتهرب كل مرة بحجة ما. وفي يوم شديد السواد احتدمت المشادة بينهما ، فأسفر عن وجهه القبيح ، وناولها شريط فيديو مصوراً فيه جميع اللقاءات الحميمة التي دارت خلف الأبواب المغلقة ، فانهارت الفتاة ، ونقلت إثر ذلك إلى أحد المشافي ، وكاد والداها يموتان خوفاً على حياتها وشفقة على مستقبلها ، لا سيما أنها لم تنطق بكلمة واحدة لِفَسْر سبب الانهيار الذي أصابها.

وتمادى الشاب أكثر فأكثر ، فأخذ يطالبها بزيارة بعض الرجال ومباسطتهم إلى أقصى الحدود ، مهدداً بنشر هذا الشريط الفاضح إن هي لم تفعل ما يريد.

ولعلها أرادت النجاة من حفرة فوقعت في أكبر منها ، وكبوة وراء كبوة ، ويوماً تلو يوم . . . حتى أصبحت حالتها كمدمن المخدرات الذي يفر من العذاب إلى العذاب ، وكالمستجير من الرمضاء بالنار . وخوفاً من تهديده أطاعت أوامره حتى تلطخت بالخطأ والعار ، واسودت الدنيا في عينيها ، وأصبح المصير قاتماً والواقع مراً ، وحاولت أن تتحرر من هذا الأخطبوط دون علم أحد ، ولكن دون جدوى ، وبدأت أخبار انحرافها تنتشر في الحي ، فكل شاب يحدث صاحبه عما رأى وكيف كانت صحبته معها ، ويصف بعض أوصافها الجسدية كما يدور بين الشباب من أحاديث بكل تفاخر .

وازداد استخدام ذلك الشاب لضحيته دون وازع أخلاقي أو ضمير ، وسيطرت على الفتاة سحائب من الكآبة والألم الممتزج بالذل ، فكانت إذا ما وضعت رأسها على الوسادة في كل يوم تتمنى الموت مئة مرة ، فقد أصبحت تشعر بأن جسدها أصبح كسيارات المواصلات مسخراً لكل الناس .

وفي مجتمع كمجتمعنا لا شيء يبقى في طي الكتمان ، فقد بدأت بعض الأخبار ترد إلى أبيها وأمها عن تغلت ابنتهم وعلاقاتها ، ولما تيقن الأب من تلك الأخبار لم يحتمل قلبه الضعيف ما وصلت إليه ابنته من مهانة وانحدار ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات متأثراً باحتشاء قلبي حاد ، فكانت وفاة الأب قنبلة نووية انفجرت في رأس الفتاة فغيبتها عن وعيها ، وثارت ثائرتها ، ولم تعِ نفسها إلا وهي تطعن الشاب بخنجر طعنة تلو الأخرى حتى مزقت أحشاءه ، وثأرت لنفسها من آلاف كؤوس الذل والمرارة التي جرعها إياها ذلك المجرم .

ولا شك أن الفتاة قد أخطأت خطأين كبيرين كل واحد منهما كفيل بإحداث دمار هائل؛ الخطأ الأول عندما وضعت ثقتها في إنسان غير جدير بالثقة ، والثاني عندما عالجت الموضوع بتهوُّر شديد وسلبية كاملة ، فضيعت نفسها وفتكت بمستقبلها .

ولن أكون واعظاً من مدينة أفلاطون لأقول : إن خطأها الأعظم كان خروجها مع هذا الشاب ، مع يقيني بأن ذلك خطأ ليس بقليل ، ولكني بالرغم من ذلك

لست متفائلاً بأن الفتيات سيمتنعن عن ذلك السلوك ، فالحقيقة التي لا مفر منها أن كل فارسٍ لابد له من كبوة ، لذا فإن اعتمادنا في توجيه أبناتنا على منعهم من الوقوع في الخطأ منهج فيه كثير من الأفلاطونية ، وأفضل من ذلك أن نعلم أبناءنا حسن التصرف وكيفية الرجوع عن الخطأ ، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون»[1]. وقد قال المسيح عليه السلام لليهود الذين حملوا حجارة وأحاطوا بامرأة زانية يريدون رجمها حتى الموت: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. عند ذلك تراجع الناس ورموا بحجارتهم إلى الأرض؛ لأنهم تذكروا أنهم جميعاً وقعوا في الخطأ ، وأن المعصومين هم الأنبياء فحسب.

فعلى الفتاة التي وقعت في مثل هذا الأمر أن تتوب إلى الله تعالى ، ولاشك أن الله سيغفر لها زلتها ، وسيبدل سيئاتها حسنات ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

فإذا حدث الذي لا نرضاه بأن استسلمت الفتاة لأهوائها وخرجت مع شاب ما ، فيجب عليها أن تتحلى بكثير من ظن السوء ولا تسير معه حيث يقودها ، وإن لم تفعل ذلك فستخسر كثيراً. فإن وقعت الفتاة بعلاقة محرمة وحاول الشاب أن يبتزها ويهددها بدليل أو أشرطة مسجلة ، فما عليها إلا الاستعانة بأبيه وأمه وأقربائه ـ ولاسيما الكبار منهم ـ فهم أقدر الناس على لجمه ، وغالباً ما ينجحون.

فإن لم تنجح في ذلك فعليها الالتجاء للسلطات الأمنية وشرح الموضوع ، وهم سيحافظون على سريته وحساسيته ، وأول ما يفعلونه في مثل هذا الموقف سؤال الشاب عن ذلك ، فلا بد للشاب أن ينكر؛ لأنه إذا أقر بها أودع

---

(١) سنن الترمذي: (٩/ ٣٩) ، ح ٢٤٢٣.
(٢) الفرقان: ٧٠.

السجن ، وإذا أنكر فلن يستطيع استخدام الشريط ونشره وتنفيذ تهديده؛ لأنه إذا نشره أثبت على نفسه الجرم ، وبذلك نكون قد عطلنا سلاحه الخبيث.

قصتنا اليوم رسالة لكل الشابات ، إنها قصة فتاة زُجَّت في المعتقلات ، وصرخت متألمة ناصحةً بنات جيلها بأن لا يسلكن دربها صرخةً مدويةً وصلت إليكم من وراء القضبان.

* * *

أحلامي في أمريكا

لقد سئم صاحبنا تكاليف الحياة وصعوبتها ، ولم تعد البلاد بحال مرضية ، فالفقر في الوطن غربة ، والتخلف يضرب بأنيابه كل جزء فيها ، والاحتكاك مع الناس أصبح شاقاً ومصدراً للكآبة ، هذا بالإضافة إلى ضيق المسكن وتدني الخدمات ، فقد أصبح كثير من الناس يشترون المياه من الصهاريج ؛ لأن الماء لا يضخ إلى البيوت إلا في ساعات محدودة أسبوعياً .

وبوسعك أن تتخيل حجم المعاناة ، فحيث يوجد الماء توجد الحياة ، وتنعدم بانعدامه .

ورحم الله أياماً كنا نتغنى فيها بماء دمشق وغوطتها ، وبردى الذي يتغلغل في بيوتاتها وأحيائها بعد أن يتشعب إلى أنهار كثيرة . لقد كان الأجداد يجلسون على ضفافه ، يشربون من مائه العذب ، ويصطادون التفاح والرمان والجوز وشتى أنواع الثمار التي تتساقط من البساتين التي يعبرها ، أما اليوم فيكفي أن تمر بجواره لتشم أقبح الروائح ، ولا مفر لك من سد أنفك تجنباً لهذه الروائح ، وكيف لا وقد أصبح مصباً لمياه الصرف الصحي؟ وبوسعك اليوم أيضاً أن تصطاد منه الجرذان والفئران ، فقد أمسى بؤرة للقوارض والقاذورات ، مع العلم أن رسول الله ﷺ لعن الذي يبول في ماء الناس أو ظلّهم .

وكذلك سفوح جبل الشيخ باتت تعاني الجفاف أيضاً ، فشبكات المياه مهترئة ، ويتسرب منها ما يقدر بسبعين بالمئة من الثروة المائية ، وها نحن بانتظار أهل النخوة والكرم في اليابان ؛ ليتصدقوا علينا بشبكات مائية جديدة .

لقد أمسى الأعرابي في أرض الحجاز يستحم بالماء المبرد ، ويملأ حوض

سباحته به وهو في صحراء قاحلة ، بل وغدا أهل تلك البلاد يصدّرون لدول العالم أنفس الفواكه والخضراوات ، فقد قاموا بتحلية مياه البحر المالحة ، وحولوا رمل الصحاري لتربة حمراء خصبة ، أما نحن فأصبحنا نضخ مياه المجاري المالحة في البحر تشجيعاً للسياحة ، وكل ذلك كان يدفع بصاحبنا للفرار لأرض الأحلام والمدنية أمريكا ، فالمعيشة أصبحت غالية جداً ، وفكرة امتلاك بيت باتت حلماً عسير التحقيق ، عدا عن ارتفاع نسبة البطالة التي تأكل أعمار الشباب ، فتمزق آمالهم ، وتسرق البسمة من وجوههم ، فتحيلهم إلى رماد.

لقد عقد الرجل العزم ، فحصل على إذن (فيزا) للسفر إلى الولايات المتحدة ، بعد أن باع بيته وأرضه ، وغادر بزوجته وابنتيه ، وأحلام الحرية والثراء تتراقص أمام عينيه ، والخيال يحلق به بأجنحة ذهبية ، وحط رحاله في جنة الأحلام ، واشترى فيها بيتاً ، ورتب شؤونه القانونية للحصول على الجنسية الأمريكية ، ولكنه اصطدم بمجتمع متفلت لا طاقة له على حماية أسرته فيه ، وواقع لم يكن يتخيله.

ففي تلك البلاد إذا ذهب الطفل إلى مدرسته باكياً مرة أو مرتين فإن لإدارة المدرسة الحق في أخذ هذا الطفل من أسرته ، مبررة ذلك بهمجية الأب والأم وجهلهما فن التعامل مع الأطفال ، أما إذا قام الأب بضرب ولده تأديباً فإن ذلك يعرضه للسجن والعقوبات الأخرى ، ويتم إيداع الطفل عند أسرة يهودية غالباً نكايةً لأصوله الإسلامية! فالمسلم في بلادهم أشبه بحمل محاط بقطيع من الذئاب ، يرقب اللحظة المناسبة لينقضَّ عليه. . . .

ومرت الأيام عسيرة ، ولم يستطع صاحبنا الإمساك بزمام الأمر ، وسرعان ما سرت حمى التحرر (التفلت) في أسرته ، فكانت زوجته وبناته يدخلن ويخرجن دون مراعاة حرمة بيت أو أب أو دين. وكلما ارتفع صوت صاحبنا هبت الزوجة مهددة باستدعاء الشرطة قائلة: متى ستتحرر من عفونتك الشرقية ، أما زلت تعتقد أنك السيد الأوحد (سي السيد)؟! ارجع إلى مستنقعك فمارس فيه همجيتك كما تحب.

وسرعان ما نفد صبر الرجل ، فما كان من الزوجة إلا أن خاصمته أمام الدوائر القضائية الأمريكية مطالبة بالطلاق ، وتم لها ذلك ، وشاطرته أمواله تبعاً للقانون الأمريكي ، فغدا صاحبنا مفجوعاً بخسارتين: زوجته ونصف أمواله.

إنه قانونهم الذي دفع كثيراً من الرجال الأمريكيين إلى قتل زوجاتهم بوسائل شديدة الخبث والمكر فراراً بأموالهم من التنصيف. فما أعدل الشريعة الإسلامية التي منحت المرأة حقها دون جور أو إنقاص ، وبذلك تحصل على حقها ، وتأمن على نفسها من القتل كما شاع في تلك البلاد.

وسرعان ما تبين سبب ثورة الزوجة وتمردها ، فقد كانت المرأة عاشقة لشاب باكستاني يصغرها بعشر سنوات ، فما أن انفصلت عن زوجها حتى تزوجت بعشيقها.

أما البنتان: فإحداهما تزوجت شاباً زنجياً لا يعلم له دِين ، يعمل في إحدى محطات الوقود ، وسكنت عنده رغم أنف أبيها الذي طالما عارض ذلك الزواج غير المتكافئ ، ناسياً أن مجتمع التحرر لا يقيم للأب وزناً ، فرضاه وعدمه سواء ، وأنى له أن يفرض رأيه على فتاة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها!

ففي أرض الأحلام تنفصل كثير من الفتيات الأمريكيات عن أسرهن في السادسة عشرة من عمرهن ، ليسكنّ مع عشيق أو حبيب ، بل وفي كثير من الأحوال يطالب الأب ابنته بالخروج من البيت وتدبر نفقاتها ، فمسؤولية الآباء عن أولادهم وبناتهم في مجتمع التحرر تنتهي في السادسة عشرة من العمر ، وعلى الفتيات أن يتدبرن أمر معيشتهن.

وحسبك أن تتخيل حال فتاة في مثل هذا العمر ، وهي تبحث عن عمل بدافع الجوع لا بدافع التسلية وملء الفراغ كما هو الحال في مجتمعاتنا الإسلامية ، لاشك أن المجتمع سيستغل هذه الفتاة أبشع استغلال ، كيف لا وهو مجتمع مادي صرف! فمن المعروف والشائع في أمريكا أن الشاب إذا أنفق على الفتاة دولارين يومياً ، جاز له عرفاً أن يعاشرها معاشرة الأزواج ، ويعد

هذا حقاً مشروعاً له لا يمنعه عنه إلا ظالم.

أما البنت الثانية فقد انتقلت للعيش مع عشيقها اليهودي ، ليعاشرها معاشرة الأزواج ، وكم توسل الأب لذلك العشيق أن يتزوجها زواجاً مدنياً ، ولكن الشاب كان يقول: إنه غير ملزم بذلك وغير مضطر.

فتخيل معي حال ذلك الأب الذي اضطر لزيارة الكنيس اليهودي ، متوسلاً إلى الحاخام (رجل الدين اليهودي) أن يضغط على ذلك الشاب ليعقد عليها عقداً مدنياً ، ولكن الحاخام أجاب بكل تصميم وحزم بأن زواج اليهودي من المسلمة محرم في الشريعة اليهودية ، فقال له: لكنه يعاشرها معاشرة الأزواج ، أليس هذا محرماً أيضاً؟ فأجاب الحاخام: إن ذنب زواجه بها أعظم من ذنب معاشرتها بالزنا!

لقد طبعت على جبهة صاحبنا وصمة الذل والعار ، فقد سلبته أرض الأحلام والتحرر كرامته وشرفه وأسرته ، بل وشطر ماله أيضاً. وحين يئس من الإصلاح أراد العودة إلى وطنه ، فتوجه إلى المصرف لأخذ ما بقي له من مال ، وفي طريقه اعترضته سيارة مليئة بالزنوج ، فنزلوا إليه وأخذوا يجذبونه من مؤخرته إلى السيارة ، لقد كانوا مجموعة من الشبان الشاذين أرادوا اختطافه لاغتصابه جنسياً ، فما كان من الرجل إلا أن تشبث بعمود تشبث الغريق ، وهو يصرخ: بوليس بوليس ، والناس يلتفتون إليه ، ثم يولون عنه وكأنهم لم يروا شيئاً ، وصاحبنا يصرخ ، والمارة لا يهتمون ، حتى شاءت حكمة الله أن تعبر الشارع سيارة للشرطة مصادفةً ، فهرب الزنوج ، ونجا الرجل من الاغتصاب الشاذ ، ولكنه لم ينجُ من اغتصاب كرامته وعرضه.

لقد كانت مدينة الأحلام مدينة للكوابيس ، ولكنها كوابيس نهارية واقعية.

فهناك في أرض الكوابيس من المعروف أن المرأة حين تقود سيارتها تضع دمية بجوارها على شكل رجل كي تحمي نفسها من الاغتصاب أو القتل!

وهناك... لا تخلو حقيبة المرأة من مسدس حقيقي ، أو كهربائي في أدنى الأحوال ، عوضاً عن مساحيق التجميل التي تملأ حقائب نسائنا!

وهناك . . . من أراد الانتحار فما عليه إلا أن يخرج من بيته بعد الثانية ليلاً ، فإنه ـ غالباً ـ سيقتل ، أو يسرق ، أو يغتصب!

عاد صاحبنا إلى بلده يجرجر قدميه خائباً مقهوراً بعد أن ضيع كل شيء ، ولو أنه حكّم شريعة الله عز وجل لما رضي أن يقيم بين أظهر الظالمين ، لقوله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» [1] .

وقوله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» [2] .

لقد أضاع صاحبنا في مدينة أحلامه فلذات أكباده ، وهذا مآل كل من يخالف الشريعة ، فإنه سيدخل لا محالة في دائرة الندم.

* * *

(١) سنن أبي داود (٧/ ٢٣٧) ، ح٢٢٧٤ .

(٢) سنن أبي داود (٥/ ١٢) ، ح١٤٤٢ .

الطالبة الجامعية

لقد كانت طالبة في كلية الآداب ، وكان أستاذها في الجامعة ـ على حداثة سنه ـ يزداد اهتماماً بها بعد كل لقاء ، وما أن يبدأ بشرح الدرس حتى يمضي الوقت سريعاً ، وكأنه حلم خاطف في نوم عميق.

ولاحظت الطالبة اهتمام مدرسها ، وكيف لا وجيل هذه الأيام قد شق الأرض وخرج منها؟! ففي جيل اليوم تستطيع فتاة في العاشرة من عمرها أن تحلل النظرات وتفهم ما وراءها ، بل وتستطيع فهم كل طرفة عين وكل التفاتة ونظرة ، فكيف بفتاة قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، وقد خزّنت في ذاكرتها مئات الأفلام العربية والقصص العاطفية ، بالإضافة إلى خبراتها المكتسبة من صديقاتها في المدرسة. . . .

وكان أستاذنا غض العود قليل الخبرة ، فسرعان ما وقع في حبها ، وراح يبذل قصارى جهده وثقافته في سبيلها.

ولا يخفى على الناظر التحرر الكبير الذي تشهده الأجواء الجامعية ، ولعل الداخل إليها يظن أنه دخل إلى مدينة أوروبية ، فالفتيات قد تزينّ وكأنهن في ليلة زفافهن ، وعلى كل مقعد قيس وليلى ، وتحت كل شجرة روميو وجوليت ، يتبادلون الحب والثقافة معاً!

وبادر الأستاذ إلى خطبة الفتاة من أهلها؛ لئلا تطير بأجنحتها مع أحد زملاء الدراسة ، ووافق الأهل ، وسرعان ما عقد القران ، وانتقلت الحورية الصغيرة إلى عش الزواج.

وبدأ الزوج السعيد يبذل جهوده لمساعدة زوجته في تحصيلها العلمي ، ولكن حسن الفتاة ونشأتها في أجواء من الغنج والدلال ، وإسراف أهلها في تلبية مطالبها جعلها تخطو خطوات متعثرة في التحصيل الدراسي ، مع العلم بأن الزوج قد حمل على عاتقه مسؤولية البيت كاملة ، إذ غدا مدرساً وطاهياً ، بل ومدبرةً للمنزل من الطراز الأول.

وكم كان مشهداً مضحكاً عندما ترى أستاذ الجامعة وقد ربط المريول على خصره ، وغرق حتى شحمتي أذنيه بين الأطباق وأواني المطبخ! ولعله كان يسرف في خدمة حسنائه ظناً منه بأن ذلك يقربه من قلبها.

وكم كانت مفاجأة أمه كبيرة حين دخلت بيت ولدها مرة ، ففوجئت به وقد شمر عن ركبتيه وانهمك في مسح البلاط ، وزوجته متمددة على سريرها ، تتلهى بقراءة المجلات وحل الكلمات المتقاطعة ، وكم حاولت الأم إيقاظ ولدها من سكرته وتبصيره بالعواقب ، ولكن دون جدوى.

ولعل صاحبنا نسي أن سلم التنازلات يبدأ بخطوة واحدة ، ثم يتدحرج إلى أسفله دون أن يستشعر سرعة الانحدار ، ولعله نسي أيضاً أن إرخاء الحبل على الغارب من شأنه أن يودي بهذا الحبل للانقطاع ، ولعله نسي أن القط يحب خنّاقه! وأن شيئاً من القسوة والجدية يجعل المرأة تتعلق بالرجل ، وأن رفع الرايات البيضاء يجعل المرأة تفتقد في الرجل معنى الذكورة ، وربما أدى إلى اشمئزازها ونفورها ، فكما أن الرجل يعشق الأنوثة في المرأة ، فكذلك المرأة تعشق فيه معنى الذكورة والسلطة ، لعله نسي كل ذلك ، أو ربما تناساه.

وانضمت الزوجة في الجامعة إلى مجموعة من الطالبات اللواتي يبالغن في التحرر ، وبدأت تنسجم معهن وتسايرهن في أزيائهن الضيقة والفاضحة ، ولطالما ترددت معهن إلى المطاعم والمقاهي الفاخرة ، والفنادق الغالية الأثمان.

ولعلها بالغت في ترددها معهن إلى تلك الأماكن ، عند ذلك بدأت ذبذبات من الوعي تخترق عتله المخدر ، فبدأ يسأل نفسه من أين تتدبر تلك النفقات؟

وقد سألها يوماً هذا السؤال ، فأجابت بكل صفاقة: إن الكثير من الرجال على استعداد لدفع هذه الفواتير لقاء ضحكة من حسناء أو التفاتة من فاتنة. عند ذلك شعر الزوج بالخطر يجتاح منزله ، ولكنه جَبُن عن مصارحتها بشكوكه خشية أن يتهم بالرجعية والتخلف الحضاري ، والعجز عن مواكبة التقدم ومسايرة العصر ، فبدأ يتتبع تحركاتها عن بعد.

لقد كانت فلسفة الفتاة قائمة على الأخذ والعطاء والاستفادة من الظروف جهد الاستطاعة ، فلا بأس بأن تجالس شاباً عابثاً في سبيل الحصول على مكاسب مادية ، فهذه سنة الحياة وقوانين المجتمع العصري. وقد كانت تظن أنها تمتلك الكوابح التي تستطيع الضغط عليها عندما تريد ، ولكن أنّى لها ذلك إذا فتحت عينيها يوماً لتجد نفسها قد عبرت سلم التنازلات حتى الدرجة الأخيرة؟

وتابعت الزوجة الصغيرة طريق الغي والفساد ، وتكرر تغيبها الطويل عن المنزل ، ولم يجد الزوج مفراً من رفع الأمر إلى أهلها ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، فالنشأة متفلتة ، وإذا كان رب البيت بالدف ضارباً ، فشيمة أهل البيت كلهم الرقص! عندها لم يكن أمامه إلا أن يتردد على الفنادق الفاخرة التي تتردد عليها زوجته ، فتعرف هناك إلى مجموعة من الشبان ، وكانوا من الرواد الدائمين لذلك الفندق ، ثم بدأ يخطف لبّه الحسناوات الجامعيات اللواتي يترددن إلى تلك الأماكن ، ومرة بعد مرة اكتشف بأن لكل حسناء ثمناً ، وأن الموضوع أخطر مما كان يتوقع ، وأن هناك امرأة تقوم بإدارة هذا النشاط!

كل ذلك كان له دور في تزايد شكوكه في زوجته ، لكن صعقته الكبيرة كانت عندما رأى سواراً في معصمها ، فجابهها قائلاً: من أين لك بثمنه؟ فضحكت ساخرةً ، وأجابته بأنه ذهب تقليدي وليس حقيقياً. عند ذلك استلَّه على حين غفلة ، واستوثق من كونه ذهباً حقيقياً يفوق ثمنه ثلاثين ألفاً ، عندها أخذ الشك يرتقي في نفسه إلى درجة اليقين ، لذلك تابع تردده إلى الفنادق ، إلى أن كان ذلك اليوم عندما أخبرته بأن هناك رحلة جامعية لزيارة لبنان ، وأنها

ستضطر للمبيت في بيروت ، وعندما طلب مرافقتها تذرعت بشتى الحجج والأساليب ، ورفضت تحقيق رغبته .

ولا يخفى على القارئ أجواء الرحلات الجامعية ، وما فيها من حلقات دبكة ، وأغانٍ ماجنة ، وتراقص الفتيات والشبان ، مع كثير من المزاح والضحك والحركات الخبيثة التي تنتج علاقات عاطفية يتوجها التعبير عن الحب بالمفهوم الأوروبي .

والعجيب موافقة الزوج على ذهاب زوجته إلى رحلات كهذه مع علمه بأجوائها ، ثم مطالبته لها بالانضباط والعفة! وهل يُعقل أن يسبح المرء دون أن يبتلَّ؟! إن الإنسان بطبعه يؤثر ويتأثر ، فهو مخلوق من لحم ودم ، وحتى الحجارة الصماء تتأثر بعوامل الحت .

في ذلك اليوم ذهب الرجل إلى فندق كانت زوجته تكثر التردد إليه ، وطلب من الوسيط هناك أن يقدم له فتاة حسناء يقضي معها ليلة حمراء ، ولكنه اشترط صفات مطابقة لصفات زوجته .

وكانت النهاية . . . . ففي الموعد دخل إلى حجرة الفتاة التي استأجرها ، فإذا بحسناء متمددة على الأريكة بثياب فاضحة ، فلما التفتت إليه اشتعل رأسه لهباً ، وصرخت فتاته صرخةً أسكتها بأربع رصاصات من مسدسه ، ودنا منها يتأمل اختلاجها ، وهو يبكي ويصرخ في حالة من الهستريا ، وتحلق الناس حول باب الغرفة ، فإذا به يخرج وقد حمل جثة زوجته وهي تنزف دماً ، وصرخ فيهم صرخةً مدويةً قائلاً : إنها زوجتي ، وأنا المغفل الذي حملتها على أكتافي سنوات وسنوات . . .

لقد حرم الله عز وجل على الرجل مجرد النظر للنساء بشهوة ، وحرم ذلك على النساء أيضاً ، فقال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] .

---

(١) النور: ٣٠ـ٣١.

وقال عليه الصلاة والسلام: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة»[1].

فكيف بصاحبنا وقد استساغ جلوس زوجته في الفنادق والمطاعم يتشهى جلساؤها كل قطعة من جسدها؟!

إن المفرط أولى بالضرر؛ لذلك فالمسؤولية لا تقع على الزوجة وحدها، بل على الزوجين معاً، فأذكر أن رجلاً رزق بولد، فحمله إلى أحد علماء دمشق قائلاً له: اجعل له منهجاً تربوياً منذ الآن. فأجابه العالم ضاحكاً: لقد تأخرتَ. فقال الرجل: كيف وبالأمس وُلد؟ فقال: كان ينبغي أن تأتي إليّ قبل اختيار أمه.

وليت الشباب يتقيدون بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «إياكم وخضراء الدمن[2]»، فقالوا: وما خضراء الدمن يارسول الله؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»[3].

* * *

(١) أبو داود (٦/ ٥٤)، ح١٨٣٧.

(٢) الدمن: البَعْر تجمعه الريح، فإذا أصابه المطر أنبت نباتاً ناعماً يهتز، وتحته الدمن الخبيث. ومعنى الحديث: لا تنكحوا المرأة لجمالها وهي خبيثة الأصل.

(٣) مسند القضاعي (٣/ ٤٦٩)، ح٨٩٠.

الأفلام

لقد كان ذلك الزوج متساهلاً ، يقبل بعض الأشياء التي يأباها الشرف الرفيع ، ومما يؤسف له أن هذه الظاهرة غدت منتشرة ، ولم تعد نادرة كما كان الحال في الماضي .

كان صاحبنا أباً لشاب وفتاة قد بلغا سن المراهقة ، ولا يخفى على القاصي والداني خطورة هذه السن ، وكان الأب يأتي بأفلام إباحية ليشاهدها مع زوجته ، والعجيب أنه كان يرى نساء في أوضاع حرجة ، ويدع امرأته في الوقت نفسه ترى الرجال الذين يشاركون بطلات الأفلام السينمائية التي غدت منتشرة انتشار النار في الهشيم ، هذه الأفلام التي ترعاها الجهات اليهودية التي تسعى بالإضافة إلى الكسب المادي لغزو الأسر العربية المسلمة ؛ لأنها تعلم أن من يشاهد هذه الأفلام سيسعى غريزياً إلى تطبيقها ، وبهذا يتحول أفراد المجتمع إلى أبطال وبطلات في هذه الأفلام ، ولكن هذه المرة دون تصوير ، فغريزة التقليد بالإضافة إلى العواطف البشرية ستؤديان لسريان الآفة في كل مكان ، ونتيجة لذلك فقد غدت العلاقات بين الجنسين منتشرة في الجامعات والمعاهد والمدارس ، إلا من رحم الله .

لقد كان صاحبنا يرى وزوجته هذه الأفلام ، ثم يقلدانها ، دون أن يعلم أنه قد أفسد نفسه وأفسد زوجته أيضاً ، وغرس بيديه بذور الخيانة في بيته ، وكيف لا وقد اختار اليهود لهذه الأفلام أجمل الشبان وأجمل الفتيات . . . فكيف ستقنع الزوجة بزوجها ، وهو لا يتمتع بجاذبية هؤلاء الرجال؟ وكيف سيقنع

الزوج أيضاً بزوجته وهو يرى أجمل الفتيات اللواتي يتم اختيارهن بعناية؟

لا شك أن عيون الزوجة ستنظر خارج بيتها ، وعيون الزوج كذلك؛ لأن من يرضى لزوجته رؤية غيره في مثل هذه المشاهد ، يبيح لها الخيانة بشكل غير مباشر ، فتلك المقدمات ستؤدي إلى تلك النتائج ، ومن ينزل الماء لا بد أن يبتلَّ.

واستمر صاحبنا على هذا المنوال؛ يأتي بالأفلام ، ثم يخفيها عن أعين أولاده في غرفة النوم. ودارت الأيام ، حتى جاء الوقت الذي قص به علينا رجل من كبار علماء دمشق القصة الآتية:

يقول العالم: استوقفني يوماً في الطريق رجل يبلغ الخمسين من عمره ، وقد ظهرت في وجهه علامات الهم والحزن الشديدين ، وقال: يا شيخ ، أريد أن أستفتيك في مسألةٍ لا أجد لها حلاً ، ودمعت عيناه ، ثم تابع قائلاً: كنتُ وزوجتي نشاهد فيلماً إباحياً ، ثم أخفيه في خزانتي الشخصية داخل غرفة نومي ، وفي ليلةٍ من الليالي وقبل أذان الفجر بقليل سمعت أصواتاً غريبةً تنبعث من غرفة الجلوس ، فما كان مني إلا أن نهضت من سريري وتوجهت لأعرف مصدر هذه الأصوات ، وكم كانت الطامة كبرى والمفاجأة عظمى عندما وقع بصري على ابني وابنتي عاريين من الثياب ، لقد كان الأخ يجامع أخته مجامعة الأزواج بعد أن تسللا إلى غرفة نومنا وأخذا الشريط وبدأا يشاهدانه سويةً ، فاشتعلت غرائزهما ، وما كان إلا أن وقع الأخ بأخته. وبدأ الرجل يمسح دموعه ويتابع حديثه: والمصيبة أيها الشيخ لم تقف عند هذا الحد ، بل إن الفتاة حامل من أخيها! فما هو العمل ، وماذا أصنع؟

ولعل حال هذا الرجل كحال من أتى بأفعى إلى بيته وأخفاها في غرفة نومه ، ظناً منه أنها لن تتجاوز جدران غرفته فتتجول في سائر البيت ، والحقيقة أن دخول الأفعى إلى البيت جريمة لا تُغتفر ، وإيقاد النار في زاوية المنزل لا بد أن يحرق جميع أركانه ، هذا ما يقرره المنطق السليم. ولا شك أن الرجل قد تصرف بحماقة كبرى وسفاهة عظمى؛ لأنه لم يعلم أن ثقباً صغيراً في زورق

سيؤدي لا محالة إلى إغراقه ، وأن «المفرّط أولى بالضرر»[1] ، ولا بد لكل من تجاهل أحكام الشريعة الإسلامية أو استكبر عليها أن يعض أنامله خيبةً وحسرة في نهاية المطاف.

وقد ثبت في السنة أن من أشراط الساعة انتزاع النخوة من رؤوس الرجال ، والحياء من وجوه النساء. فكان صاحبنا من الذين نزعت النخوة من رأسه ، وكان السبب في نزع الحياء من وجه زوجته أولاً ، ثم نزع النخوة والحياء والعفة والفضيلة من وجوه أولاده.

إن هذا السرطان الذي بدأ يتسلل إلى مجتمعاتنا كان قد استشرى في المجتمعات الأوروبية ، حتى تجاوزت نسبة زنا المحارم في ما بينهم ٣٠٪ ، فلا حرج لدى ثلثهم في أن يُواقع الأب ابنته ، والأخُ أختَه ، والخال ابنة أخته.

لقد قرأت حديثاً استفتاءً رُفع لمشيخة الأزهر ، مفاده أن خالاً عاشر ابنة أخته ، والفتاة حامل من هذا السِّفاح ، وهم يطالبون الأزهر بفتوى تبيح إسقاط هذا الجنين وقتله في أحشاء أمه ، ولكن علماء الأزهر أصدروا حكماً بحرمة الإجهاض ولو كان الجنين ناتجاً عن زنا المحارم؛ لأن المصيبة لا تعالج بمصيبة أكبر وأشد خطراً منها ، والزنا لا يعالج بالقتل.

ولما تتبعتُ تفاصيل هذه القصة علمت أن الخال وأخته وجميع الأولاد والبنات ينامون في غرفة واحدة لا تتجاوز مساحتها تسعة أمتار ، وقد بلغ عددهم اثني عشر فرداً ، وهذه إحدى مظاهر الفقر والضيق الاقتصادي وأزمة السكن في عصرنا.

تخيل مجتمعاً يفيض فقراً وتخلفاً ، بالإضافة إلى انهيار جميع أسواره الأخلاقية والدينية ، فمن الطبيعي أن ينتج عنه مثل هذه المصائب.

ولعل سائلاً يسأل: ما حكم الشريعة الإسلامية في هذه الأحوال:

والجواب: إن الشريعة الإسلامية تحكم ببقاء الجنين وعدم إجهاضه إذا لم يتجاوز عمره (٤٠) يوماً أو(١٢٠) يوماً (على اختلاف في المذاهب) ،

---

(١) المدخل الفقهي ، للدكتور أحمد الحجي الكردي.

كما تحكم بأن ينسب الولد إلى أمه ، ولا ينسب لأب ، وأن يقام الحد على الزانيين بالجلد إن كانا من غير أزواج ، وبالرجم إن كانا متزوجين.

ولعل معالجة الفقر وأسبابه ، ومحاولة إعادة بنيان القيم الأخلاقية والدينية هما العلاج الناجع في مثل هذه الحالات.

ولعل هذه القصة تذكرنا بقصة فتاة أخرى دخلت على إحدى مدرسات الفقه تشكو إليها مصابها ، تقول:

كان لي خال يتحرش بي ، وقد خشيت أن أشكو ذلك لأمي ، واستمر على ذلك مرات عدة ، حتى تجاوز جميع الأسوار ، فضعفت بين يديه ، وغدوت امرأة لا بنتاً ، ثم رزقني الله بزوج ساذج ، وانطلى الأمر عليه ، ولم يكتشف أني ثيب ، وبدأت حياة جديدة عفيفة ، ولكن خالي يحاول اليوم العودة لسلوكه القديم ، على الرغم من كوني امرأة متزوجة ، وهو يهددني بإخبار زوجي بقصتي القديمة ، فكيف النجاة؟ وأين المفر؟

إن الشيء المفتت للكبد هو انتشار هذه القصص العجيبة في مجتمعنا المسلم ، الذي لم يعرف سابقاً مثل هذه المفاسد ، ويبدو أن جراثيم الغرب قد تغلغلت فينا ، والسبب في ذلك الشبكات الإعلامية المتصهينة ، العربية منها وغير العربية ، وتساهل الأهل في بعض القضايا المتعلقة بالاختلاط ، وعدم التفريق في المضاجع ، وكشف العورات ، وغير ذلك . . . .

و لعل قصة ذلك الرجل الذي جامع ابنته في سويسرا ، وأنجب منها سبعة أولاد ليست بالبعيدة عن الأذهان والذاكرة.

ولو أن الناس اهتموا بما تشاهد زوجاتهم وأبناؤهم وبناتهم كما يهتمون بطعامهم لتجنبنا كثيراً من هذه الويلات ، ولو أن رجال المسلمين ونساءهم تقيدوا بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾[1] ، وطبقوا الروائع القرآنية والنبوية في تربية الأطفال ، وتعليمهم الاستئذان قبل الدخول إلى الغرف ، والتفريق بينهم في الأسرّة ، وبناء علاقة حب وصداقة وصراحة كاملة بين الأب ، والأولاد ، والأم ، وبناتها ، لتجنبنا كل هذه الكوارث.

* * *

(١) النور: ٣٠ ـ ٣١.

حكاية عربي مستغرب

عرفته وقد بلغ الثمانين من عمره ، وكانت بيني وبينه صداقة وقرابة على الرغم من التباين الكبير بيننا في العمر .

بدأت قصة هذا الرجل منذ صغره؛ فقد كانت له أم رحيمة به ، ولكنها كانت مسرفة في هذه الرحمة لدرجة أفسدت ولدها ، فتقاعس عن الدراسة ، وبالغ في اللهو حتى فاته قطار الدرس . ولم تبالِ هذه الأم بتقصير ولدها وإسرافه على نفسه ، بل ضاعفت الإغداق عليه ماديًا ومعنويًا ، فملأت جيوبه بالمال ، وأثنت على إهماله ومخالفاته .

في ذلك الحين كانت سورية محتلة من قبل الفرنسيين ، وكان الفرنسيون قد قاموا بحملة لاستقطاب الشبان السوريين للخدمة في جيشها الغاشم ، وأغروهم بالرواتب العالية . لكن الخدمة في جيش المحتل تعد خيانة دينية ووطنية ، بل وأخلاقية أيضاً ، وهذا مبدأ جميع شعوب العالم على اختلاف مشاربهم الحضارية ، فإعانة المستعمر المخرب انحدار لا يخفى على القاصي والداني .

وعلى الرغم من ذلك التحق صاحبنا بجيش المحتل الفرنسي دون أدنى شعور بالمسؤولية ، وكانت أمه تأتيه بالطعام وهي تحمله على رأسها . وكانت تضطر ـ لكي يأكل ولدها من صنع يديها ـ أن تسير على قدميها ثلاث ساعات متواصلة ، وأن تمر بين الجنود الفرنسيين على نذالة أخلاقهم ، ضاربة عرض الحائط كل المخاطر والتحرشات التي تتعرض لها في سبيل رفاهية ولدها ، مع العلم أن الفرنسيين كانوا يقدمون لأعوانهم وجندهم أفخر أنواع الطعام .

ومن الأمور التي حدثني عنها أنهم كانوا يضاعفون حلاقة اللحى حتى تصبح خدودهم أرق من أعناق العذارى ، ويأمرون الجنود في الصباح بأن يتجردوا

تماماً من ثيابهم ـ حتى الداخلية منها ـ ويصطفوا عراة ، وكان صاحبنا يخلع ثيابه ويقف في الصف عارياً بين زملائه دون أن يشعر بأي وازع ديني أو أخلاقي. وعندما لُمْته على هذا التعري رفع حاجبيه متعجباً ، وكأنه نشأ في حي من أحياء باريس ، ولم ينشأ في أحياء دمشق التي كانت عامرة بالشهامة والنخوة والرجولة!

ودارت الأيام ، واستمر الشاب على المسلك القديم ، وتعرف على مجموعة من المومسات ، فكان يختلس فراغ منزله من أهله ويأتي بهن وبأصدقائه ، ليكون منزله مأوى لتلك الفضائح والممارسات ، وكم تقلب أصدقاؤه على فرش أمه وأخواته وبين أيديهم بنات الهوى ، ولا يزداد صاحبنا بذلك المنظر إلا غبطةً وسروراً.

ولكنْ للناس أعين لا تنام وألسن لا تمل الكلام. . . .فقد شاع هذا الأمر وافتضح ، وباتت سيرته حديث الساعة. عندها أصر أهله أن يتزوج ليسكت ألسنة الناس ، وخطبوا له فتاة صغيرة بارعة الجمال ، شقراء ذات عينين زرقاوين ، وكانت إلى جانب جمالها محتشمة ملتفة بخمارها لا يظهر منها حتى وجهها ، فتزوجها.

ولكن الزواج لم ينسِ صاحبنا ما اعتاده لسنوات وسنوات ، فبعد عدة ليال من زواجه عاد لدعوة أصدقائه إلى منزله ، وكان يأمر زوجته بأن تقوم على خدمتهم ، وكانت الفتاة خجولةً متحفظةً ، ولكنه كان ينهرها ويعنفها لتخضع لإرادته ، فقد كان يرى أن السهرات المختلطة تعد مظهراً حضارياً ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان واحداً من الشباب الذين نشؤوا في ظل الاحتلال الفرنسي وانسلخوا عن ثقافة مجتمعهم ، وكانوا ينتهجون المبادئ الفرنسية ويشعرون بالنقص الحضاري تجاه حضارتهم الإسلامية وتعاليمهم الدينية.

وأخذت المرأة تقاوم هذا الجو الذي فرضه زوجها ، ولكن لا بد للمناخ أن

يؤثر ، فكم نحتت الريح صخراً ، وكم شقت السيول أنهاراً. . . وشيئاً فشيئاً بدأت زوجته تميل باتجاه مذهبه.

وسرعان ما انحدرت في ذلك الوادي المعتم ، فبدأت تتقبل المجاملات الخبيثة بسرور ، ثم تطور الأمر وأخذت تتقبل الهدايا السرية دون علم زوجها ، وأخيراً بدأ أصدقاؤه يترددون إلى بيته أثناء غيابه عنه ، وانحدرت الزوجة الخؤون في براثن الرذيلة تتقلب بين أصدقائه كما تتقلب على سريرها.

ودارت الأيام ، وأنجبت زوجة صاحبنا الفرنسي الثقافة العربي الانتماء أربعة أطفال ، وكان كل طفل من هؤلاء الأطفال يشبه صديقاً من أصدقائه ، فمنهم الأسمر النحيل ، ومنهم الأشقر ذو العينين الزرقاوين. . .

وشاء الله أن ينتقل عمل الزوج إلى مدينة بانياس على البحر ، ولا يخفى عليك تعري الحسناوات على الشواطئ التي أصبحت تنافس شواطئ العراة الأوروبية ، وكان لصاحبنا فضل السبق هناك أيضاً ، إلى أن تعرفت زوجته في إحدى الحفلات المختلطة على قبطان مصري ، وكان بينهما ما كان.

وذات صباح استيقظ الزوج الغافل فلم يجد زوجته في بيته ، فأخذ يتحرى ويسأل ، وما هي إلا ساعات حتى تيقن من خيانتها؛ إذ علم أنها هربت مع القبطان المصري إلى القاهرة ، لكن لعله لم يشأ أن يصدق ما سمع ، فشد الرحيل إلى القاهرة للبحث عنها ، لكن أخبار إقامتها مع عشيقها لم تخفَ على أحد هناك ، فلم يكن أمامه إلا أن يطلقها أمام المحكمة الشرعية بالقاهرة؛ ليرجع إلى دياره حاملاً عبء مصيبته وفضيحته ، وعبء أولاده الذين باتوا دون أم تقوم على تربيتهم والعناية بشؤونهم.

ويوماً وراء يوم كانت تتبادر إليه قصص وأخبار عن علاقات أصدقائه بزوجته وترددهم إلى بيته وخيانتهم ، فازداد يأساً وامتلأ إحباطاً.

وليته أيقن منذ البداية اختلال منهجه وضحالة مبادئه الفرنسية التي أودت به إلى الحضيض ، لكنه كان منساقاً وراء آرائه المستوردة من المجتمعات الأوروبية التي تبث إلينا وتزرع في أدمغة أجيالنا تحت اسم التقدم الحضاري.

لقد قال أحد زعماء الفرنسيين حين خروجه من سورية كلمة لا تُنسى: (ما خرجنا من سورية حتى زرعنا ما نريد).

لقد زرعوا التفلت ، وفتتوا الدين ، ونزعوا النخوة من رؤوس الرجال والحياء من وجوه النساء!

وأما القبطان المصري فسرعان ما تململ من عشيقته فطردها وتخلى عنها ، عندها استشعرت عظمة مصيبتها ، وطاف في صدرها الحنين إلى صغارها ، فسعت إلى طليقها منحنية عند قدميه متوسلة أن تعيش خادمة لأولادها ، ولكن كيف له أن يراجعها وهو الذي أمسى أضحوكة الحي ، وسخرية المجالس ، ولم يبقَ صغير ولا كبير إلا وقد ولغ في سمعته وسمعتها ، فما كان منه إلا أن طردها وباعد بينها وبين أولادها ، عندها أوصدت أمامها الأبواب كلها ، فانحدرت وتاهت في سبل الرذيلة ، وأخذت تتقلب من منحدر لآخر ، ومن بين أنياب ذئب إلى حضن ثعلب.

ولعل ذنب هذه المرأة وتحولها من طهر وعفاف إلى تفلت وجريمة سيبقى معلقاً في عنق هذا الرجل إلى أن يجره إلى أودية جهنم ، ولكن يُتم أطفالها وفجيعتهم لبعدها وفقدهم لحنوها جريمة تعجز البحار عن رفع اتساخها ويقع إثمها على الزوجين معاً ، وصدق من قال: الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون.

وعاش صاحبنا ذليلاً تلاحقه نظرات الشماتة تارة والشفقة تارة أخرى ، وازداد عليه عبء أولاده الذين تشتتوا بين بيوت الأقارب والجيران ، فاضطر للزواج من أول امرأة يلتقي بها ، وكانت امرأة ذميمة أجرها والدها لتعمل خادمة عند امرأة يهودية ، فقامت على توجيهها وزرع المبادئ اليهودية في رأسها.

فتأمل معي مدى التعقيد النفسي الذي نشأت عليه ، وكيف ستكون معاملتها وتربيتها لأولاد ضرتها ، هؤلاء الأطفال الذين عاشوا مآسٍ كثيرة؛ أولها خيانة أمهم وثانيها فقدهم للحضن الدافئ و آخرها تسلط امرآة متصهينة على حياتهم ،

فكأنهم خرجوا من مستنقع للأفاعي إلى مستنقع لمصاصي الدماء.

وقدر الله أن تنجب هذه المرأة أولاداً كأنهم فراخ أبالسة ، فغدا المنزل ملعباً للشياطين ، ولكنهم إنس وليسوا بجان. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم...»[1].

ثم... لم يكن غريباً في ذلك البيت أن تتصل الأم هاتفياً بأحد الجيران تطلب النجدة بعد أن علا أحد أبنائها على أخيه وبيده سكين ليذبحه.

ولم يكن غريباً أن يبيع هذا الأب ابنته الشابة لأحد العجائز الأثرياء طمعاً بحفنة من المال.

لقد جرى بيني وبين هذا الرجل محاورة وجدال طويلان ، وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، وعجبت كل العجب عندما وجدته مازال متمسكاً بخلق الديوث ولم تصعقه صفعات القدر ، عند ذلك أدركت سر تمسك أبي لهب بكفره مع يقينه بصدق نبوة محمد ﷺ؛ فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وليس لي في نهاية المطاف إلا أن أدعو إلى نبذ القيم الغربية امتثالاً لقوله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[3]. ولنذكر دوماً قوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، و لن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[4].

* * *

(١) سنن ابن ماجه (٦/١٠٦) ، ح ١٩٥٨.
(٢) المطففين: ١٤.
(٣) صحيح البخاري (١٥/ ١٩١) ، ح ٤٥٢٥.
(٤) سنن الترمذي (١٢/ ٢٥٨) ، ح ٣٧٢٠.

في نهر دجلة

بطل قصتنا اليوم شاب من أهل بغداد ، عاش أياماً لم يكن التعليم في الجامعات شائعاً فيها ، فاحترف مهنة النقل النهري بين ضفتي دجلة ، وكان يمتلك زورقاً ينقل الركاب فيه من ضفة إلى ضفة .

ونهر دجلة ـ كما نعلم ـ يمر داخل المدينة ، فيشطرها شطرين ، فمن أراد التنقل بين ناحية وأخرى فلا بد له من عبور النهر راكباً أحد المراكب التي تقوم بهذه المهمة .

ومرت الأيام . . . وكان ذلك اليوم عندما صعدت زورقه فتاة بارعة الجمال برفقة أمها ، فأخذ صاحبنا يجدف بنشاط وحيوية ويختلس النظر لعيني الفتاة الساحرتين اللتين يعجز المرء عن مقاومتهما ، وبادلته الفتاة هذا الإعجاب ، فكلما نظر إليها أطرقت رأسها مبتسمة . وتكررت الرحلات ، وتكرر لقاؤهما مرة بعد مرة حتى علق الشاب في هواها ، فأسرع إلى أهلها خاطباً ، ولكن المؤلم أن أبا الفتاة رفضه بشدة وقسوة مستكبراً عليه ؛ لفقره وضيق ذات يده ، وكرر الشاب طلبه ولكن دون جدوى .

وعندما باءت محاولاته كلها بالفشل عاد إلى عمله يملؤه اليأس والأسى ، وحاول الانغماس في عمله أكثر لينسى ما جرى معه ، ولكن هذه الصدمة ألهبت نار الشر في صدره ، وأشعرته بمرارة التفاوت الطبقي ، وأخذت الشياطين تتراقص على كتفيه ، فقد أصاب رفض الأب له مكمن العقد في نفسه .

وبعد مرور خمس سنوات على هذه الحادثة كان في عمله على الزورق ،

فصعدت معه امرأة معها طفلها الرضيع ، وأخذ ـ كعادته ـ يسترق النظر إليها ، كان وجهها مألوفاً له ، فأمعن النظر أكثر ، ليفاجأ بأنها فتاة أحلامه التي رفضه أبوها لفقره. عند ذلك استيقظت في نفسه مشاعر مختلطة ، فيها الحب تارة والحقد تارة أخرى ، واشتعلت الشهوة في رأسه ، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[1]. ودخل الشيطان عقله ، فراودها عن نفسها ، فأبت ، فألحَّ عليها ، فاستعصمت ، فتوقدت عيناه ببريق الأبالسة ، وكان الزورق في عرض النهر بعيداً عن الأبصار والأسماع ، فانتزع رضيعها من بين يديها وأخذ يهددها بقذفه في الماء ، ولكنها ما ازدادت إلا صلابة ، فغمس رأسه في النهر ثم أخرجه مهدداً بخنقه ، ولكنها لم تضعف ، فغمسه المرة الخامسة حتى اختنق ، فقذف به في النهر!

ولم يكتفِ بذلك ، فقد فاحت منه رائحة السباع الضارية ، وتحركت في نفسه مكامن الحقد والإجرام ، فوثب على المرأة ، فقاومته ولطمته ، ولكنه كان شديد البنية مفتول العضلات لطول عهده بالتجديف ، فجرها إلى حافة الزورق وغمس رأسها في الماء مهدداً بالخنق وهي متشبثة بصلابتها ، ويذكرني هذا المشهد بممارسات التعذيب التي تقترفها المخابرات الأمريكية ، فلقد استخدم هذا الأسلوب في الكونغرس الأمريكي ، وذلك لمبالغة « cia » في هذه الوسيلة ، هذا عدا عن تسليطهم الكلاب المتوحشة على الأسرى لنهشهم وهم أحياء. فتأمل كيف كان دجلة يجمع بعض المجرمين وزملاءهم الذين لحقوا بهم بعد عبور الأطلسي.

ثم غمسها غمسة كانت القاضية ، وقذفها خلف رضيعها في دجلة؛ ليكون نهر دجلة اليوم أيضاً مقبرة للمقهورين.

وتابع القاتل عمله في ذلك اليوم كعادته بعد أن أزال جميع آثار المرأة ورضيعها عن سطح المركب ، ولم تفلح تحقيقات الشرطة في الكشف عن الجاني ، فقيدت الحادثة ضد مجهول. وبعد مدة وجيزة ترك صاحبنا العمل

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٤٠٤) ، ح ١٠٩١.

على المركب ، والتحق بعمل آخر ، ظاناً أن دماء المرأة ورضيعها قد غابت في دائرة النسيان مثلما غابت في قاع النهر. ولكن أنى لها أن تغيب عن الخبير الديان؟

وسرعان ما أتاه انتقام الله. . . ففي أحد الأيام كان يسير فجراً في أحد أحياء بغداد القديمة وأزقتها الضيقة ، فسمع صوت استغاثة وصراخ ، فأسرع إلى مصدر الصوت ، وإذا برجل ملطخ بدمائه وقد غُرس خنجر في صدره ، فأسرع لإنقاذه وانتزاع الخنجر ، وسرعان ما اجتمع الناس وتحلقوا من حوله ليروا أداة الجريمة في يده!

وبدأ يصيح ليدفع التهمة عن نفسه ، ولكن من ذا الذي سيشهد ببراءته ، فالخنجر في يده والمطعون بين يديه. وسيق إلى القضاء ، وأحاطت به القرائن والشواهد ، فعلم التحقيق الجنائي والأدلة المخبرية لم يكن قد تقدم كما هو اليوم ، وحكم عليه بالإعدام. وقبل تنفيذ الحكم سرت في نفسه صحوة الضمير ، فنادى بأعلى صوته معترفاً بقتله المرأة وطفلها ، مطلقاً رسالته للناس: من أفلت من أعين البشر فلن يفلت من عدالة القدر.

وليت كل مجرم يعلم قبل ارتكابه جرمه بأن المصير هو القصاص عاجلاً أو آجلاً ، وأن لا مفر ولا منجاة من الجزاء ، فكل مذنب سيحمل الدم في عنقه حتى يتثاقل عليه ويهد كاهله ، وسيتصاعد حتى يغرقه ويقطع أنفاسه.

ولعلك تسأل فتقول: إن كان هذا مصير قاتل فرد ، فما بالنا نرى قتلة الشعوب يسرحون ويمرحون وكأن عدالة القدر قد غفلت عنهم؟ وأين أصحاب مجزرة صبرا وشاتيلا؟ وما بال أصحاب قنبلة هيروشيما وناكازاكي؟ وأين الذين قطعوا رؤوس نساء البوسنة وأطفالها حتى فاضت أنهار كوسوفو بتلك الرؤوس والأشلاء؟ وأين مصير صرخة المرأة العراقية التي اخترقت جدران معتقل أبو غريب وهي تقول: يا من ملأتم بطونكم بالطعام تعالوا ، وانظروا إلى بطوننا التي امتلأت بأطفال الزناة؟ وأين ضمير مسلم يسمع أختاً مسلمة تنادي: لقد عَرَّوْنا من ثيابنا وصبوا الخمور على نهودنا وأخذوا يمتصون الخمر من صدورنا؟

أين ضمير قوم يسمعون عن المرأة العراقية التي وقفت عند أحد الحواجز العسكرية الأمريكية ، فتكالب عليها ثلاثة من الجنود ، وعرَّوْها من ثيابها أمام أعين أطفالها وحلُّوا سراويلهم وأخذوا يتناوبون على الفجور بها ، والأطفال قد انفجروا بالبكاء والصراخ ، وقد بح صوت المرأة منادية: أين أنتم يا أمة الإسلام؟ يا أمة محمد! يا أحفاد خالد والقعقاع!

لقد فعل مغول أمريكا اليوم كأسلافهم مغول الأمس ، ويبدو أنه قد كتب على هذه الأمة أن تعيش فوق الجمر ، وبين فوهات البراكين ، وتقذف على رؤوسها حجارة من سجيل. . .

ولكن حسبنا من كل هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[1] .

* * *

(١) إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣.

شيخ الزورق

إنَّـه نهر دجلة. . . . ذلك العملاق الذي يشرب شتاءً ويرضع صيفاً من نهود بيض تزاحم أعناقها الغيوم. . . . إنها جبال كساها الثلج بمعطف سميك تفوق سماكته عدة أمتار ، فإذا انتهى موسم المطر شتاءً بدأت الثلوج بالذوبان ، عند ذلك يمتص النهر مياهها طوال الصيف ، فيبقى زاخراً عظيماً مخيفاً وساحراً بآنٍ واحدٍ.

يخترق بغداد بعد أن يقطع مسافات شاسعة في سفر طويل عبر فيه الحدود دون جواز سفر منطلقاً من هضبة أرمينية إلى تركية ، ماراً بالعراق ، متراقصاً في بغداد ، فاتناً أهلها ، حتى يصيبه التعب والخجل من نظرات عيونهم ، فيستلقي لينام في شط العرب.

إنه رئة العراق ، وللعراق رئتان: دجلة والفرات ، على ضفافه يتجمع الأهالي ، وتتجول الفاتنات ، ويتواعد العاشقون ، ويتراكض الأطفال. . .

وترى صفحة وجهه مليئة بالزوارق. . . . فهذا حبيب يخلو بحبيبته فوق مرآة دجلة وتحت أشعة القمر ، يستمد الحلم من عينيها الحائرتين ، وتستمد الأمن من وميض عينيه الملتهبتين ، وهناك زورق فيه أطفال يغنون ويصفقون ، ومجذِّفون ينقلون الناس من ضفة إلى أخرى.

هناك التقينا بشيخ له مركب يتكسب منه ، إذا نظرت إليه لمست ملامح طفل جميل الطلعة رائع المشيب! له على شيبه سذاجة طفل ونظرات ملك ، وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب.

عندما اقتربنا من الشيخ نسأله عن صحبته لهذا النهر ، وعن عمره الذي عاشه فوق سطحه مجذِّفاً ناقلاً الناس ، أشرق وجهه بابتسامة رجل قد ذهبت الأيام بأسنانه قائلاً : إني أعرف دجلة منذ خمس وستين سنة ، فقد بدأت العمل عليه في الخامسة عشرة من عمري .

فقلنا له : حدثنا عن أغرب حادثة مرت بك في هذه الصحبة الطويلة .

فقال : مرت علينا أيام ضاقت فيها الأرزاق ، وخفت حركة العابرين ، وفي ليلة مقمرة أصابني الأرق ، فانحزت بمركبي لجوار قصر الملك فيصل ، وأخذت بالغناء ، مع أن صوتي لم يكن رخيماً ، ولكن لليل سكونه وشجنه ، ونحن أهل العراق نستعذب ذلك ونبدع فيه ، وقد أمدني القمر بسحره بموجة عالية من الإحساس . وبينما أنا كذلك إذ خرج رجل من إحدى نوافذ القصر ، كان رجلاً متوسطاً في العمر ، عليه أمارات الهيبة والوقار ، فخشيت أن يؤنبني . وأنّى لفقير مثلي أن يغني تحت شرفات القصور؟!

ولكنه لم يعتب ولم يغضب ، بل قال لي بلهجة هادئة حالمة : مساء الخير يا عم . فقلت له : لا تؤاخذني يا بني لغنائي بعد منتصف الليل ، فإني أشعر بالملل والأرق ، ولن أكرر ذلك بعد اليوم .

فضحك وقال مداعباً : بل أنا مسرور جداً بسماع صوتك ، وقد أُصبت مثلك بالأرق .

فأجبته : أما أنا فشيخ كبير ونومي قليل ، ولكن ما الذي يؤرّق شاباً مثلك؟!

قال : الهموم الكثيرة التي تسرق النوم من العيون .

فقلت له : وماذا تعمل هنا في هذا القصر؟

فقال : أعمل خادماً لكل الناس ، وإن لي كثيراً من العيال .

فقلت : لا تحزن يا بني ، فإن الرزق سيأتيك ، والرزاق موجود ، وإنه

تعالى يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

ثم نظرت إليه وقد بدت عليه أمارات الحزن، وتنهد بزفرات مليئة بالحرقة، فخيل إليّ أنه بحاجة إلى مال، ومددت يدي إلى جيبي، و ـ والله ـ لم يكن فيه إلا مئة فلس، فأخرجتها، وقلت له: بماذا أناديك؟

فقال: نادني عبد الله.

فقلت له: يا عبد الله، إننا إخوة في الإسلام، والإنسان عون لأخيه الإنسان، والجبلان لا يلتقيان، ولكن الإنسان لا بد أن يلتقي بأخيه، وكلانا نعلم أن الدنيا يسر وعسر، فخذ مني هذه الفلوس واستعن بها، وتردها حين الميسرة، وأنا أيضاً أستدين منك حين إعساري.

فأخذها وعيناه مغرورقتان بالدمع، وتأصلت صداقة بيني وبينه، فكان كلما شعر بالأرق خرج إلى النافذة يفضي إلي وأفضي إليه، وأقترض منه ويقترض مني، ثم وسَّع الله عليه، فإذا به يعطيني الدينارين والثلاثة والأربعة، وأنا أعطيه بعض الفلوس القليلة.

واستمرت هذه العلاقة، وكان ـ رحمه الله ـ عطوفاً رقيقاً، يهتم لحالي، ويسأل عن عيالي. وكنت ذات ليلة في مركبي أنتظر خروج عبد الله، فلما تأخر أخذت أناديه، وإذا بشرطي ضخم الجثة عريض المنكبين أسمر الوجه، كأنه من زبانية جهنم، تبدو عليه علامات الغلظة، وراح ينهرني قائلاً: أتصرخ تحت شبابيك الملوك أيها الأحمق.... والله لأؤدبنك، ثم أمسك بي، فكنت بين يديه كصوص صغير، وجذبني جذباً عنيفاً على عادة الحراس الذين نشؤوا في أجواء قاسية، ولا يفقهون إلا لغة العنف، وكأنهم وحوش ضارية.

فقلت له: إني في جوارك، داخل عليك، ارحم هذه الشيبة.

فقال لي: اخرس أيها الوغد. وهَمَّ في افتراسي.

---

(١) الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣.

وبينما أنا كذلك ، إذ بعبد الله يطل من النافذة ، فخشيت عليه أن يصيبه ما أصابني ، ولكن الحارس عندما رآه تجمد في مكانه ، وألقى له تحية عسكرية ، فخاطبه قائلاً: ماذا تريد من صديقي؟ دعه. فأطلقني ، وانكب على يدي وقدمي يتوسل ويعتذر ، فأشفقت عليه لما رأيت من انكساره وتذلُّله ، عند ذلك قلت له: سامحك الله يا بني. ودهشت لذلك ، فأقبلت إلى صديقي عبد الله وقلت له: ماذا فعلت بالرجل حتى ذعر وخاف هذا الخوف؟ فأجاب ضاحكاً: إن الله ألبسني رداء الهيبة. فقلت: سبحان الله.

ومرةً رأيت صديقي عبد الله يركب سيارة الملك ، فلما رآني نزل منها ، وأمسك بيدي ، وأخذنا نسير معاً ، حين ذلك أدركت أنه الملك فيصل صاحب القصر.

لقد كان يسير وحده بلا حرس مدججين بالسلاح ، ولما سألته عن الحرس ، قال مبتسماً: إن شعبي يحبني ، فأنا أكون في ذروة الطمأنينة حين أتجول بينهم.

حينها تبادرت إلى ذهني تلك الأيام الطويلة التي كنت أقرضه فيها شيئاً من الفلوس ، ولو كنت أعرف أنه الملك لما تجرأت على مجرد النظر إلى وجهه.

وليتك ترى صورتي ـ وأنا العجوز الفقير ـ وقد اتكأت على يد الملك ، أمشي معه ، وكأنني سلطان الآستانة.

قد يبدو لك هذا غريباً ، ولكنها سمات الأشراف والأفاضل في كل زمان ومكان ، هؤلاء الذين يتعاملون مع الآخرين وقد حطموا الأسوار والحواجز ، المالية منها ، والعلمية وغيرها.

ورحم الله عمر بن الخطاب الذي كان مثالاً لهؤلاء ، فقد ورد بأن سفير كسرى دخل المدينة المنورة حاملاً رسالة إلى أمير المؤمنين ، ولما سأل عنه بعض المارة أشاروا إلى رجل مستلقٍ على الأرض ، وقد وضع حذاءه تحت رأسه ، وغط في نوم عميق تحت شمس ساطعة ، فبهت الرجل وقال مقالته الشهيرة التي غدت قاعدة ذهبية: «عدلت ، فأمنت ، فنمت».

وأطرق الشيخ قائلاً: رحم الله فيصلاً ، لقد سار على سنة الفاروق. واغرورقت عيناه بالدموع ، فترك الزورق يمشي مع الماء ساكناً هادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم. وسمعته يقول همساً كأنما يناجي نفسه: رحمه الله . . . رحمه الله ، لقد كان رجلاً.

* * *

ما شاعت الفاحشة في قوم

لقد دخل صاحبنا البيوت من أبوابها ، ولم يتسوَّر الجدران أو يتسلل من فتحات النوافذ ، بل التزم قول النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1] . .

وقد أعجب صاحبنا بفتاة اجتمعت فيها كل أسباب الزواج التي تدفع الخُطَّاب إليها ، فهي شابة رشيقة ، ممشوقة القوام ، خفيفة الظل ، عذبة الألحان ، حين تستمع إليها وهي تتكلم تعتقد أن أمامك عازف بيانو من الطراز الأول ، وإذا تجاسرت على التحديق بعينيها شعرت بدوار البحر قد طاف برأسك لعذوبة عينيها الزرقاوين ، فيصعب عليك أن تطيل النظر إلى وجهها لوهج يغشى عينيك ، فتخشع الجفون رغماً عنك. وكانت تتقاطر حبات اللؤلؤ من وجنتيها لشدة حيائها ، وهي إلى جانب ذلك تنحدر من أسرة راقية محافظة.

هرول الشاب إلى أمه مندفعاً يتوسل إليها بالإسراع في خطبتها؛ كي لا تتخاطفها شباك الصيادين ، وسرعان ما تيسر له ذلك ، وسارت الأقدار بسرعة عجيبة ، وجرت الرياح هذه المرة كما تشتهي السفن.

وما هي إلا أيام حتى كانت فتاته بين يديه كعصفورة بيضاء لينة ، تتمايل تارةً ، وترتجف تارة أخرى ، منكمشة على نفسها ، خجلة لعذرية قلبها ، فعاطفتها مازالت رطبة غضة حديثة العهد بالحياة. ونقش صاحبنا اسمه على قلبها ، فكان الحبيب الأول ، ثم كان الزواج. ولربما نسيت المرأة كثيراً من

---

(١) البخاري (١٦/ ٣٣) ، ح٤٧٠٠.

أحداث حياتها ، أو فقدت قدرتها على التذكر ، ولكن يستحيل أن تنسى أول نقش خُطَّ على شغاف قلبها.

وبعد أشهر قليلة أثمر الزواج السعيد طفلة رائعة أشبه ما تكون بأمها ، وكان صاحبنا يعمل مهندساً بالكهرباء في إحدى الشركات المتخصصة ، وبدأ وضعه الوظيفي يرتقي درجة تلو درجة ، حتى غدا ذا مكانة يحسد عليها.

ونعمت هذه الأسرة الصغيرة بكثير من الدفء والحنوّ ، وكان الأب يتعجل في عمله متلهفاً للعودة لأسرته؛ ليضم زوجته وابنته إلى صدره ، فقد كان ذا مشاعر وعواطف دفاقة ، ورقَّة أبوية ظاهرة ، وكانت الزوجة أكثر منه التصاقاً بأسرتها وابنتها ، وكانت الأسرة حقاً أشبه ما تكون بسرب من العصافير يتبادلون فيما بينهم أناغيم الحب والغزل وكأنهم يسبحون مع سنفونية رومانسية هادئة ، تحركها أمواج من الشوق الدافئ.

وفي يوم من الأيام كلف صاحبنا بالسفر إلى ألمانيا للقيام بدورة تدريبية على بعض الآلات التي استوردتها الشركة ، فحزم أمتعته للسفر بعد أن علته غصة الفراق ، وودع زوجته وابنته بألم كبير.

وأمضى صاحبنا الأسبوع الأول في ألمانيا يتقلب على جمر من الشوق ، وطالما فاضت نفسه لملامسة شعر ابنته وشم جبينها وتقبيلها ، وكم اضطرب قلبه لرائحة القهوة التي كانت تقدمها له زوجته. ولكن عادة الزمن أن كل شيء في حياتنا يتناقص شيئاً فشيئاً ، ففاجعة الأم بوفاة وليدها تكون في الذروة في اليوم الأول ، ولكنها تتضاءل يوماً وراء يوم حتى تغدو بعد عدة سنوات جزءاً من الماضي ، وإن تركت أثراً أو ندبة في النفس ، فكم دفنّا أحبابنا تحت التراب وبكيناهم ، ثم رجعنا إلى بيوتنا نأكل ونشرب ، ونعاشر أهلنا ونضحك ملء أفواهنا ، وهذه رحمة غرسها الله في الإنسان ، فقد فطره على النسيان.

وورد في كتب السنن عن النبي ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبِيْصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال: أي ربِّ ، من

هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وَبِيْص ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ، من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. فقال: ربِّ، كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي ربِّ، زده من عمري أربعين سنة. فلما قُضِيَ عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته»[1].

وتعرف صاحبنا على فتاة ألمانية، وكان بينهما اختلاط وتعارف وتباسط، ثم تطور الاختلاط إلى علاقة جنسية بينهما، ولعلها لم تطل كثيراً، فقد أنهى صاحبنا مهمته في ألمانيا وركب الطائرة راجعاً إلى بلده، ولم ينسَ أن يحمل أصناف الهدايا لزوجته وابنته.

والتقت الأسرة من جديد، وعاد الدفء إلى ما كان عليه، وبثت الأشواق، وحملت الزوجة طفلاً وكأنه نقطة في المصحف، أو ملك ناصع البياض هبط إلينا من السماء. ولكن بعد مدة وجيزة بدأ الزوج يعاني من ضعف في صحته، وتدهورت حالته بسرعة كبيرة، وبدأ يهزل جسمه وينقص وزنه بخطوات لافتة للنظر!

وما هي إلا أيام حتى أظهرت التحاليل والفحوص الطبية بأنه قد حمل فيروس الإيدز. فأصيب بإحباط أشد عمقاً من فوهة البركان، فعمله المشين لم يتسبب في قتل نفسه فحسب، بل قتل زوجته وابنه الرضيع، فتكالبت عليه آلام الجسد والروح والنفس، ومات على إثر ذلك أبشع ميتة، ولم تطل الأيام بعدها حتى لحقت به امرأته.

لقد كتبت هذه الواقعة، والطفل ما زال يعاني من سكرات الموت، وتصيبه بين الحين والحين غطات عميقة، فيعتقد من حوله أنه قد قبض، ثم يفاجؤون بأنه قد فتح عينيه الصغيرتين اللتين تفيضان دمعاً وأسى، وما زلت أتابع قصته حتى الآن، ولا شك أنه قد بات قريباً من الجنة أكثر.

---

(١) سنن الترمذي (١٠/ ٣٤١)، ح٣٠٠٢.

لقد مزقت هذه القصة الواقعية أحشاء كبدي ، وعلت حلقي غصة على الرضيع وأمه ، وامتلأ صدري غيظاً من ذلك الشاب الذي لم يكتفِ بقتل نفسه فحسب ، بل قتل معه ملكين بريئين. وما أبشع القاتل عندما يوجه حربته المسمومة إلى صدور الملائكة!

لا شك أن الإنسان ليس معصوماً من الوقوع في الخطأ ، وأن خير الخطائين التوابون ، ولكني أخاطب الشباب فأقول: إن معصية الزنى جريمة كبيرة ، فأنتم لستم أحراراً في إزهاق أرواحكم؛ لأن هذه الأرواح قد تعلقت بها أرواح أحبائكم من زوجاتكم وأولادكم وبناتكم وأمهاتكم.

وأذكِّر بحديث المصطفى ﷺ: فقد سئل أبو ثعلبة الخشني: كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟ قال: أما ـ والله ـ لقد سألت عنها خبيراً ، سألت رسول الله ﷺ ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك ـ يعني بنفسك ـ ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قال: يا رسول الله ، أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم»[1].

وقوله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»[2].

ولعل من فهم الحديث فقه أن رسول الله ﷺ أراد بذلك أنه لا بد لكل مفعول من فاعل ، ولا بد لكل فاعل من مفعول.

أقول: إن أبيتم إلا الذنوب ـ وهذا ما سيكون ـ فاحتاطوا لأنفسكم ، لا حرصاً على حياتكم فحسب ، بل حرصاً على أحبائكم. وإن أَبَيْتَ إلا الانغماس في المعصية فابذل الحيطة الكاملة حتى يتوب الله عليك.

* * *

---

(١) سنن أبي داود (١١/٤١٦) ، ح٣٧٧٨.

(٢) البخاري (١٦/٤١) ، ح٤٧٠٦.

عاشق الفرنسية

لقد كان عاطفيّاً شفّافاً شديد الحساسية ، إذا نظرت إلى أنامله رأيتها أشبه بأنامل فتاة منحوتة من شمع ، وقد بذل النحّات عصارة خبرته في إبراز دقتها ، فكأنها خُلقت لعازف بيانو أو موسيقار مبدع ، وخضعت له الريشة منسابة بين يديه ، فكان يرسم رسوماً تكاد من صدقها تنطق.

ولطالما جلس في الحدائق يرسم الناس لا لأجر مالي ، بل إذكاءً لفنه وتعبيراً عن أحاسيسه ، حتى جاء ذلك اليوم الذي رأى فيه تلك الفتاة الفرنسية ذات الشعر الأحمر والعيون الخضراء ، وقد حباها الله بياضاً ورقّة ، فكانت كتمثال من الزُّبد في نعومتها وليونتها ، وترتدي البنطال الأوروبي الضيق الذي أقبلت عليه فتياتنا العربيات إقبالاً يضاهي إقبال الأوروبيات.

وتسمَّرت عيناه في وجهها ، وهبط عليه شيطان الرسم والشعر ، فأطلق العنان لأنامله لتبدع أجمل صورة رسمت لامرأة.

وأتم الفنان صورته ، وأقبل إلى الفتاة مسرعاً ليفاجئها بها حاملاً بيده وردةً جوريةً ، لعلها تقرّبُ المسافة بينه وبينها ، فسُرَّت الفتاة لمبادرته ، وقبلت هديَّتهُ بامتنان ، وبدأ بينهما تعارف ، سرعان ما تطوّر إلى حب.

ولأن صاحبنا فنَّانٌ فلا بُدَّ له من أن يتشبه بأساطين الفن ، فأطلق شَعره كما يفعل الهبّيز ، وعلَّقَ طوقاً في عنقه ، وبدأ يرتدي الألبسة الملونة التي لا تليق برجولته ، ولو استطاع أن ينسلخ عن جلده ويتبرأ من عروبته لفعل ، وكل ذلك تقرباً إليها ونيلاً لودِّها.

وليتك رأيته حين دخل بهذه العارية ـ أو شبه العارية ـ الفرنسية إلى حيه الشعبي وحارته الضيقة المليئة بالحفر والمطبات ، فبين الحفرة والحفرة حفرة

أخرى على عادة أزقة بلادي ، وهي تدخل متعثرة تمسك بيده مستغيثة ، تكاد تسقط على وجهها عدة مرات ، وقد جحظت أعين الرجال بقدميها وكأنهم لم يروا أنثى طوال حياتهم. وليتك رأيت الأطفال الذين يلعبون بالطين والحصى وقد انتشروا في كل مكان يتقاذفون قطعة معدنية بين أقدامهم يسمونها كرة ، وعندما رأوها بدؤوا يسيرون خلفهما يصفّقون وينادون: جاءت الراقصة ، جاءت الراقصة.

ثم صعد بها درجات بيته المتكسرة ، فلا تكاد تجد فيها درجة واحدة لم يطبع عليها الدهر خيبته ، وفتح لها باب البيت ، فإذا بأمه العجوز المتلفحة بلباس الصلاة وقد تقاطرت حبات من ماء الوضوء عن وجهها ويديها تنظر بدهشة وذعر: من هذه يا ولدي؟ هلاّ سترتها من هذا العري؟

وارتفع صوت الفرنسية بتحية الفرنسيين: (بون سوار) ، ثم جلسا يحتسيان القهوة والعجوز تتذمر ، ولحسن الحظ لم تكن الفتاة تجيد العربية.

قالت الأم: أتريد أن تفضحنا بين الخلائق؟ ألا يكفي أنك أطلت شعرك فلم يعد الرائي يميز بينك وبين النساء؟ أوَصلت بك الجسارة أن تأتيني بفتاة من الملاهي؟

اعلم يا بني أن هذا البيت طاهر ، وقد عشت مع أبيك فيه حياة مليئة بالطهر والاستقامة ، فلن أسمح لك أن تدنسه بعد هذه الشيبة.

ولم تكن العجوز قد أوتيت حلماً وأناةً لمعالجة شرود ولدها بالحكمة المطلوبة ، ولا سيما في مثل هذه المواقف ، وكان الأب العجوز أبعد من المرأة عن الحكمة ، فما أن دخل ووقعت عيناه على قدميها العاريتين حتى صرخ بهما صرخةً ارتجَّ لها البيت ، فانسلّ الشاب وصديقته فراراً بأنفسهم.

وانهالت الفرنسية على الشاب توبيخاً وتحقيراً لأصله وأهله وحيّه ، بل وبلده كلها ، وكان يرد على ذلك بصمت مطبق؛ لأنه يشعر في قرارة نفسه بالضآلة والنقص والتفاوت الشاسع بين الشرق والغرب ، فقد غزت رأسه

الأفلام الأجنبية والمظاهر الخادعة والتحرر الزائف والإنسانية المزعومة ونظافة الخارج ونجاسة الداخل.

وليته علم أن أهل الغرب الذين انبهر بهم كانوا يعقدون المؤتمرات قبل ١٤٠٠ عام فقط لمناقشة حقيقة المرأة: هل هي من البشر أم من الحيوانات! بينما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يورّث المرأة، ويشركها في البيعة السياسية.

وليته علم أن الفرنسيين منذ مئة سنة ونيف كانوا يمنعون المرأة من جميع حقوقها التعاقدية، بل ويجردونها من الأهلية تماماً، بينما ولاّها الإسلام القضاء قبل أربعة عشر قرناً، ومن ذلك أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولّى «الشفاء» القضاء في السوق.

لكن صاحبنا كان يحصد ثقافته من السينما الأمريكية ودواب المستشرقين، وليس هذا الكلام قبولاً بالتخلف الذي ترزح تحته الأمة أو تبريراً للتراجع الحضاري الخطر الذي نعاني منه، وإنما نداء لمدِّ جسر بين الماضي والحاضر لتعبر عليه الأجيال وصولاً إلى مستقبل يحاكي الماضي.

وأصر الشاب على الزواج من الفتاة الفرنسية، وقامت صراعات بينه وبين أبيه وأمه، ودارت الحوارات والمعارك، ولكن رأسه صخرة صمّاء لا تلين ولا تتزحزح عن مكانها. قال له أبوه: لن ترضى بعيشتنا، ولن تقنع بك زوجاً وأباً لأولادها، ولن تقف معك على نوائب الدهر، وستنظر إليك دوماً كشرقيٍّ جافٍ ومتخلف، ولن تصبر على تفلتها وتبرجها، ولن تحتمل نظرات الآخرين إليها، ولن تكون طوع بنانك، ستكون كفرس جموح عسيرة على الترويض، وستقذف بك فتجد نفسك كسيراً على الأرض...

ولكن حماسة الشباب ركبت رأس صاحبنا، وكان الزواج...

وتراه يستيقظ صباحاً قبلها؛ ليعدَّ لها الفطور ويحمله إلى السرير، ويتقاسم معها الغسل والكنس والمسح، والويل له إن سألها إلى أين خرجت؟ ومن أين أتت؟، فالشك مرفوض والتحكم ممنوع، ولا عيب في أن تستقبل بعض

الرجال في بيته ، فهم زملاؤها في السفارة الفرنسية ، وصداقتهم بريئة ، وأما الرقص والعناق وشيء من التصرفات الناتجة عن السُّكر فهي أشياء طبيعية ليس للمتخلف رفضها أو منعها .

وهنا بدأ يعترض على تصرفاتها ، وشيئاً فشيئاً بدأ صبره ينفد ، فصحيحٌ أنه طبَّع نفسه على الأخلاق الأوروبية ، لكن ما زالت بعض الدماء الشرقية تسري في عروقه .

وشاء الله أن يثمر هذا الزواج طفلاً ، وكان شبيهاً بأمه ، وطالما غيَّر له سراويله ونظفه ، ولم يبق إلا أن يرضعه! بل كان يرضعه فعلاً بزجاجة الحليب الصناعي ؛ لأن الفرنسية المتحضرة لا تريد لتكويرة صدرها أن تتغير ، وللأسف تلاحظ أن الكثيرات من بنات العرب تتتلمذ في تلك المدرسة ، مما يصيب المرأة بسرطانات وأمراض عدة لامتناعها عن الإرضاع الطبيعي ، ويصيب الأطفال بالتهابات وإنتانات خطرة ، عدا عن القسوة التي سينشأ عليها الصغار ؛ لأنهم لم يرضعوا حنان أمهاتم مع الحليب .

وأذكر قول رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمّعة؛ تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1] .

ولكن سنة الحياة ماضية ، والوقوف أمام القطار لن يوقفه ، وما أصاب الأمم من الآفات سيصيبنا ، ومن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم مروا بأقوام يقدسون شجرة ، فقالوا: اجعل لنا يا رسول الله مثلهم ، فقال: «لتركبنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبٍّ لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه»[2] .

نعود إلى صاحبنا الذي احتدمت الصراعات بينه وبين زوجه ، ولم يبق لهما شيءٌ من الصبر والمداراة ، واستيقظ يوماً فلم يجد زوجته وطفلها ، وعلم أنها

---

(١) الترمذي (٧/ ٢٩٠) ، ح١٩٣٠ .

(٢) الحاكم في المستدرك (١٩/ ٢٩٥) ، ح٨٥٣٥ .

عادت وصديقها الفرنسي إلى باريس ومعهما الطفل ، وعندما كلمها هاتفياً أخبرته بالحقيقة المرة؛ أخبرته بأن الطفل ليس ولده ، وأنها تعشق صديقها الفرنسي ، وهو والد طفلها الحقيقي!

لقد كان يرى بعينه مراقصتها لصديقها وانسجامها الشديد معه ، ولكنه أقنع نفسه بأنها قيم المتحضرين ، وقد كان عليه أن يصغي لنداء العقل ونداء أبيه الذي شيبت التجربة رأسه ، ولكنه أدرك ذلك بعد فوات الأوان ، ولاتَ ساعة مندمِ.

الأم

يقول الطبيب الذي يعمل في مشفى جراحة القلب: جاءتنا امرأة تحمل طفلاً عمره سنتان ونصف ، فأجرينا له عملية جراحية في قلبه ، وكانت حالته جيدة ، ولكن بعد يومين من العملية الجراحية أصيب بنزيف حاد في الحنجرة ، وازداد هذا النزيف حتى أدى لتوقف القلب مدة من الزمن ، وحاول الأطباء إنقاذه ، وتجمعوا حوله ، وكانت حالته الصحية حرجة جداً ، وبعد جهد كبير استطاعوا أن يتداركوا الوضع ، ولكنهم قالوا: يحتمل أن يكون الطفل مات موتاً دماغياً ، وربما لن يكون له أمل في الحياة.

واحتار الأطباء في كيفية مصارحة هذه الأم التي حُرمت من الإنجاب مُدَّةَ سبعة عشر عاماً ، وكان هذا الطفل وحيدها ، فكانت تأتي كل يوم إلى المشفى ، فتجلس عند رأسه تقرأ القرآن حتى المساء.

يقول الطبيب: دعونا هذه الأم ، فجلسنا معها ، ثم بدأنا بالمقدمات التمهيدية ، ثم صارحناها قائلين: ربما لن يكون لهذا الطفل أمل في الحياة ، فدماغه ربما يكون قد مات. فقالت الأم مباشرة: الشافي هو الله والمعافي هو الله ، اللهم إن كان له خير في الشفاء فاشفِهِ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[1]. ولم تزد على ذلك شيئاً ، ثم جلست عند رأس الطفل وأخرجت مصحفاً صغيراً وأخذت تقرأ القرآن ، وطفلها ما زال على هذا الحال ، ثم بدأ يتحرك ، فاستبشرنا وقلنا: هذه علامة خير.

وفي اليوم الثاني أتاه نزيف أشد من الأول ، فتوقف قلبه مرة ثانية ، ثم

---

(١) التغابن: ١١.

وقف النزيف ، ثم جاءه ثالثةً ، فتوقف قلبه ست مرات يغشاه نزيف فيتوقف القلب عن النبض ، والطفل لا يتحرك أبداً . . . حتى أيقنا أن الطفل مات موتاً دماغياً ، ولا أمل في شفائه . والأم تقول : الحمد لله .

وعجبنا لحال هذه المرأة ، ما صاحت ولا صرخت ، ولا تكف عن قولها : الشافي هو الله . وتردد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[1] .

وبعد أيام أُصيب بخرَّاج كبير ، ثم التهاب في الدماغ ، فقلنا لها : إن وضع ابنك يزداد سوءاً ، وحاله أخطر من قبل ، فتقول : الحمد لله .

يقول الطبيب : استأصلنا له الخرَّاج ، ولكن بعد أيام أصيب بقصور حاد في الكلى ، وأيقنَّا أنه قريب جداً من الموت ، نزيف والتهاب في الدماغ وخراج وتوقف للقلب أكثر من ست مرات ثم قصور كلوي . . . وما تزال الأم متماسكة . والأطباء يزدادون عجباً من تماسك هذه المرأة المتوكلة على ربها .

أربعة شهور . . . والطفل على هذه الحال ، والأم تفتح المصحف ، وتقرأ عند ابنها . يقول الطبيب : وبعد أربعة أشهر أصيب الطفل بالتهاب في الغشاء المحيط بالقلب ، فاضطررنا لفتح القفص الصدري ، والأم ترى طفلها على هذه الحال ولا تزيد عن قولها : «وإذا مرضت فهو يشفين» .

ولعل هذه المأساة إذا مرت على امرأة أخرى أُصيبت بالهلع والصراخ والانهيار العصبي ، وخرجت عن طورها ، وربما شتمت الخالق عز وجل ، وربما اتهمته بالظلم والقسوة ، وسخطت على القضاء والقاضي ، وعلى القدر والمقدر .

وأذكر كيف أن امرأة مات ولدها ، فوقفت تنتحب على قبره ، فمر بها الرسول ﷺ وقال لها : «اتقي الله واصبري» ، فقالت : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبي ﷺ ، فأتت باب النبي ﷺ ، فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[2] .

---

(١) الشعراء : ٨٠ .

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٩) ، ح١٢٠٣ .

يقول الطبيب: وبعد ستة أشهر أخرجنا الطفل من الإنعاش، وهو لا يتحرك ولا يتكلم، وقلنا: لا فائدة من بقائه في المشفى، فهو ينتظر الموت. وأثناء مكوثه هذه المدة لم تقف الأم عن قراءة القرآن على رأسه، ولم تشكُ أمرها إلا لله، ولم تتلفظ إلا بمفردات الحمد، والشكر لله تعالى.

يقول الطبيب: والله بعد شهرين فقط كان الطفل يمشي، ويتكلم، ويلعب مع بقية الأطفال، وكأنه لم يصب بأذى ﴿.. وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

سبحان الله! بعد أن حكم الأطباء بأنه لا فائدة، وأن الطفل ميت دماغياً، أعاد الله العافية لهذا الصغير كرامة لصبر أمه وثقتها بربها.

فقد ورد في الحديث القدسي قوله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي»[2].

لقد كانت لا تمل من قول: اللهم إن كان في شفائه خيراً فاشفِهِ.

يقول الطبيب: بعد سنة ونصف، رأيت الأم مع زوجها، فأقبلا يسلمان عليَّ، والطفل قد بلغ أربع سنوات وهو في أروع حال، ورأيت بين يديهما طفلاً رضيعاً، وهو الطفل الثاني بعد صبر دام مدة سبعة عشر عاماً.

إنها نموذج مشرف لقوة الإيمان ورسوخ العقيدة، ولن يتمتع المرء بصبر عظيم إلا إذا تمتع بإيمان أعظم.

وأذكر قصة المرأة السوداء التي كانت تُصرع على عهد النبي ﷺ، فشكت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي. فقال: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك» فقالت: أصبر. قالت: فإني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها[3].

رزقنا الله الصبر والرضا بالقضاء خيره وشرّه، لقد ورد عن النبي ﷺ

---

(١) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) صحيح البخاري (٢٢/ ٤٠٩)، ح٦٨٥٦.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٣٣٤)، ح٢٤٠٣.

قوله : «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»[1].

وأختم فأقول: إذا وقعت المصيبة فأنت مخيَّر بين حالين: إما أن تصبر وتُثاب على ذلك وتدخل في معية الله ورحمته ، وإما أن تسخط وتجزع ، فلا تُثاب ، بل تأثم وتدخل في سخط الله وغضبه. والمصيبة واقعة واقعة سواء عليك أصبرت أم جزعت ، رضيت أم أبيت. فإن جزعك وسخطك لن يرفعانها عنك ، وإن صبرك ورضاك سيخففان آثارها عليك ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط ، والمصيبة على حالها. فنسأل الله العفو والعافية.

(١) سنن الترمذي (٨/ ٤٢٢) ، ح٢٣٢٦.

الحجاب

بدأت قصة بطلتنا منذ نعومة أظفارها ، وشاء القدر أن تثمر زهرتنا في بيت عربي يعتنقُ قيم التحلل التي يسمونها التحرر والتحضر! فكان الأب لا يتكلم إلا باللغة الإنكليزية ، وقد تبرأ من أصله العربي ، ولا يعرف من الإسلام إلا اسمه. ولم يكن ذلك غريباً؛ فهو ابن تلك المرأة الأمريكية التي رضعت منذ طفولتها لبان الفسق والفجور.

لقد سخَّر الأب إمكانياته كلها لتنشئة ابنته على منهجه الذي يعيش لأجله ، فكان البيت يصخب بين الحين والحين بالحفلات الراقصة والضحكات الماجنة ، حيث تدور الكأس ، ويتعانق الأصحاب ويتداعبون كأنهم أبطال أفلام للإثارة والجنس.

لكن صغيرتنا كانت مكلوءةً برحمة من الله عز وجل ، وكأنها نبع ماء عذب في وسط بحر مالح متلاطم الأمواج ، فقد سئمت هذا الجو استجابة لفطرتها السليمة التي غرسها الله في كيانها.

وكما قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يمجِّسانه»[1].

لقد أبت الصغيرة هذا الاختلاط الذي يفيض وقاحة وغريزة ، وسئمت قيم الخنازير؛ حيث لا عورة ولا حُرمة ولا كوابح ، وكأن حياتهم شاطئٌ للعراة.

وشعرت بطلتنا بالخجل؛ لأنها لا تجيد لغة القرآن ، فقد قارنت نفسها بقريباتها اللواتي يتحدثن العربية بطلاقة ، أما هي فقد زجَّها أبوها في المدارس

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٣) ، ح ١٢٧٠.

الأجنبية؛ لترضع لغة العجم وقيمهم الهابطة ، بل إن البيت الذي حضنها أيضاً لا يتكلم أفراده إلا بالإنكليزية. فأبوها يشعر بشيء من الاحتقار تجاه اللغة العربية.

وكم ألحَّت الفتاة على أبيها لدراسة اللغة العربية ، ولكنه أبى واستكبر ، فزادت في إلحاحها حتى خضع لرغبتها ، وبدأت تتعلمها على يد مُدرسة مؤمنة ، فأخذ لسانها يتلفظ بآيات الذكر الحكيم ، وسرت رطوبة من لسانها إلى قلبها ، ففاض سعادة وطمأنينة . . . ثم تعلمت الصلاة ، فكانت إذا دخلت فيها غابت عن الدنيا وضآلتها.

ورضي الله عن الصحابي الجليل حارث بن مالك ، فقد قال له رسول الله ﷺ يوماً: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث ، عرفت فالزم» ثلاثاً[1].

وامتلأ صدر أهلها غيظاً لاستقامتها والتزامها بدينها ، وبذلوا جهوداً جبارة لردها ، بل وعنفوها أشد تعنيف ، ولكنها تمسكت بقرآنها كما يمسك الغريق بغصن النجاة. ولكن الصاعقة الكبرى كانت عندما ارتدت الحجاب ، فجنَّ جنونهم ، واستحالوا إلى ذئاب مستعرة.

ولك أن تتصور مدى الظلم والقهر الذي انهال على فتاتنا ، فقد انكبَّ هذا الرجل الذي يقدس الثقافة الغربية ، ويؤمن بحرِّية المرأة بجنون فنزع الحجاب عن رأس ابنته نزعاً عنيفاً ، وهددها بالضرب والإفقار.

إنه يؤمن بأن المرأة إذا خلعت ثيابها وبدت متبرجة تتمايل بين الصفوف مثيرة للفتنة ومحرضة على الفساد فهي إنما تمارس حريتها المقدسة ، ومن الجنون والتخلف أن يعترضها معترض؛ لأنه يُعد عدواً لحرية الإنسان وحرية

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٤٣٠) ، ح ٣٢٨٩.

المرأة ، أما إذا قررت امتثال أمر ربها وستر شعرها عن قناعة منها ورغبة ، فإنه عند ذلك يبرر قمعها وضربها ، وينتزع الحجاب عن رأسها جبراً و قهراً ، ولا يرى عند ذلك بأنه يتعدى على حرية المرأة!

إنها معاييرهم المزدوجة ، فهم لا يكيلون بمكيالين فقط ، بل بعشرات المكاييل ، وكلنا سمعنا عن البرلمانية التركية التي دخلت إلى البرلمان وقد ارتدت الحجاب ، فثارت ثائرتهم وأخذوا يصرخون وكأن قطعاً من اللهب تسقط على رؤوسهم ، وما هدأت ثورتهم حتى طردوها من البرلمان طرداً ، وهم بذات الوقت يتبجحون بالحرية والديمقراطية. ولو أن امرأة ارتدت قبعة يهودية ودخلت البرلمان في تركية لرحبوا بها وقالوا: زادها الله التزاماً بدينها!

وسبحان الله! كيف يستطيع حجاب الرأس هذا أن يثير عصارة السم التي تغلي في أكبادهم ، حتى تسيل من أفواههم ، فهذه دولة غربية تدعي أنها صاحبة الثورة في أوروبا أصدرت قانوناً يحظر ارتداء الحجاب الإسلامي في المدارس ، وطردت كثيراً من الفتيات المسلمات لا بسبب ارتكابهن جرائم أخلاقية في المدارس ، بل لمجرد عفافهن وستر شعورهن.

وكان حرياً بهذه الدول المتحضرة أن تسعى لتطهير مجتمعها النتن الذي كثرت الجرائم الجنسية حتى في مدارسه؛ إذ يندر أن تجد فيها طالبة عذراء ، بل إن كثيراً من الطلاب قاموا باغتصاب مدرساتهم. هذا المجتمع المتحضر الذي وقف مدير أحد مدارسه جامعاً الطلاب ذكوراً وإناثاً في ساحة المدرسة ، وأخرج من جيبه عشرة آلاف دولار أمريكي ، ونادى قائلاً: هذا المبلغ مكافأة لفتاة ما زالت تحتفظ بعذريتها حتى اليوم. ولكنه لم يجد طالبة واحدة في مدرسته تستحق المكافأة! وكيف لا... وهم يدرِّسونهم الجنس على مقاعد الدراسة ، ويوزعون عليهم الواقيات الطبية لمحاربة الإيدز.

ولعله لا يخفى عليك بأن هناك مئات الآلاف من الأطفال الذين قذفوا في الشوارع؛ لأن أمهاتهم لم يتجاوزن الرابعة عشرة من عمرهن ، ويطلقون عليهم اسم أبناء الحب ، فالآباء والأمهات أطفال ينجبون أطفالاً ، ويقذفون بهم ليكونوا مادة سهلة بين يدي عصابات المخدرات والدعارة والجريمة.

وإنه لمن المعيب ، بل والمدمي للقلب أن يخرج علينا مرجع ديني مرموق ليفتي بحق الفرنسيين بأن يرفعوا الحجاب الإسلامي عن رؤوس بنات المسلمين ، بل ويكرر ثلاث مرات قولته المشهورة: (من حقها... من حقها... من حقها!) ، يقصد: الحكومة الفرنسية. وكأنه ما قرأ يوماً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [1] . أو قوله عز من قائل: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ.. ﴾[2].

لقد تابع الأب تهديده لابنته ، ثم ألقى بها في الولايات المتحدة الأمريكية لتنخرط رغماً عنها في هذه القيم البالية ، ولكن أنى له ذلك؟ أوليس الله بكافٍ عبده؟ لقد ألهم الله فتاتنا الطاهرة أن تتوجه إلى أحد المراكز الإسلامية ، فقاموا ـ حفظهم الله ـ برعايتها ، وأسكنوها في بيت شيخ كبير مع بناته وكأنها واحدة من هذه الأسرة الطاهرة ، ولاحقها أبوها كثيراً ، وكم أصيب بالدهشة والخيبة عندما هددها بالحرمان من الميراث فأجابته بشموخ الجبال الراسيات: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[3].

وصدق الإمام الحسن البصري ، فقد روي عنه أنه كان مع ثلة من العابدين وبيده كسرة خبز يابسة ، فحملها ودخل بها إلى الفرات فبللها ، ثم خرج بها وأكلها ، وقال: والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة لقاتلونا عليها بالسيوف.

لقد ذاقت هذه الطاهرة الصغيرة التي لم تتجاوز العشرين من عمرها حلاوة الإيمان ، فغدا أحب إليها من كل شيء. وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما

---

(١) الأحزاب: ٥٩.
(٢) النور: ٣١.
(٣) طه: ٧٢.

يكره أن يقذف في النار»[1]. وما زالت المؤمنة الصغيرة تعيش في الولايات الأمريكية في بيت ذلك الشيخ ، وقد عانقت دينها واشترت الجنة . . . والحمد لله .

* * *

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٥) ، ح١٥ .

الخـادمـــة

إن هناك من البشر من يتسمون بقسوة في قلوبهم وجلافة في طباعهم ، فيأتي الدين والمبادئ الأخلاقية والأجواء التربوية السليمة لتهذب من هذه الأخلاق ، وتليِّن تلك الطباع. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قسوة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قبل الإسلام ، ورقته وشفافيته الفائقة بعد الإسلام ، وإليك ما جرى:

كان عمر ـ رضي الله عنه ـ في محفل من الصحابة ، فوجدوه يبكي بكاءً شديداً ، فسألوه: ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: حادثة ذكرتها ، فكلما ذكرتها فاضت نفسي. فقالوا: أقسمنا عليك إلا أخبرتنا إياها. فقال: لقد كنا قوماً أهل جاهلية ، عتاة قساة ، نكره البنات ، وولدت لي امرأتي يوماً بنتاً ، فتصبرت عليها حتى كان أول مشيها ، فأتيت أمها وقلت لها: زينيها. فأقسمت عليَّ زوجتي ألا أفعل ، فأبيت ، فزينتها ، وقلت لها: تعالي يا صغيرتي. فهشَّت البنت فرحةً وهي تظن أنني أريد إكرامها ، فأصبحت أمشي وتمشي خلفي ، فتتعثر تارةً وتقف أخرى لحداثة سنها ، حتى وصلت إلى بادية جرداء ليس فيها إلا الرمال الملتهبة ، فحفرت لها حفرتها ثم وضعتها فيها ، وبدأت أُهيل التراب عليها ، وهي تحثي التراب عن لحيتي حتى لا تتسخ ، وما زلت بها حتى دفنتها حية.

لا شك أن هذه قسوة ما بعدها قسوة ، وقد كان كثير من العرب يفعلون ذلك ، وأشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا

وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

ثم هدى الله عز وجل عمر إلى الإسلام ، فتبدلت تلك الطبيعة القاسية إلى رقةٍ ما بعدها رقة ، فقد ورد أنه ـ رضي الله عنه ـ كان يسير في أزقة المدينة يوما ، فسمع رجلاً يقرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[2] ، فوقع عمر مغشياً عليه تأثراً بما سمع ، ومرض ثلاثة أيام ، وعاده أصحابه في مرضه لذلك السبب.

وورد أيضاً أن أعرابياً وقف عليه ، فقال:

يا عمر الخير جزيت الجنة ... جهز بنياتي واكسهنَّه... أقسم بالله لتفعلنه.

قال: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي؟ قال: أقسم بالله لأمضينَّه. قال: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابي؟

قال: والله عن حالي لتسألنَّه... ثم تكون المسألات عنه... والواقف المسؤول بينهنَّه... إما إلى نار وإما جنة.

قال: فبكى عمر حتى اخضلَّت لحيته بدموعه ، ثم قال: يا غلام ، أعطه قميصي هذا ، لذلك اليوم لا لشعره ، والله ما أملك قميصا غيره![3]

نعود فنقول: إن الإسلام كفيل إذا استوطن القلوب أن يذيبها ويجعلها لينةً رقيقة ، ولكن لا شك أن هناك كثيرا من النماذج القاسية الشرسة التي لم يهذبها دين ولا خلق ولا تربية. وقصتنا اليوم من هذا القبيل ، إنها حكاية أب فاجر ضاقت به سبل الحياة ، فما كان منه إلا أن ساق ابنته التي لم تبلغ تسع سنوات من عمرها إلى أسرة ثرية متنفذة؛ لتكون خادمة تحت أقدام كل فرد فيها ،

---

(١) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) الطور: ٧ ـ ٨.

(٣) أسد الغابة ، لابن الأثير (٢/ ٣٢٤).

وذلك لقاء مبلغ يسير يدفع إليه شهرياً. وكم حاولت الفتاة أن تتوسل إليه بدموعها وانحنائها عند قدميه ، قائلةً له: إني صغيرة ، ولا أطيق البعد عن أمي وإخوتي. ولكن محاولاتها لم تُجْدِ ، وكانت كمن يحفر في الصخر ، وما كان من الأب إلا أن نهرها وصرخ في وجهها موبِّخاً ، وتسلَّم أجرة عبوديتها وانصرف.

وشاءت الأقدار أن تقع هذه الفتاة بين يدي أناس أشبه بالأبالسة ، إنها أسرة مكونة من زوج ثري ذي شأن ، وكانت له سلطة لا يشق لها غبار. وأما الزوجة فهي امرأة أرستقراطية تعبد المظاهر وتعشق الحفلات الباذخة ، وتنغمس في المجتمعات المخملية دون تفكير. وكان لهما ولد مدلل تتحقق كل رغباته كأنه إلهٌ صغير!

وانكبَّت هذه الطفلة على غسل الأواني وتنظيف الجدران والعناية بالمنزل الذي يحتاج إلى سبع عاملات للقيام بأعبائه ، إضافة إلى التسوق وجلب الطعام من السوق. فكانوا يوقظونها من الفجر الباكر ، فتدور حول الرحى حتى ساعة متأخرة من الليل ، دون أن يسمح لها بأخذ قسط من الراحة ، وإذا ما قصرت يوماً أو تململت عوقبت بالضرب والشتم والإساءة. فمكثت عندهم على هذه الحال عشر سنوات في شقاء وبؤس ، ولم يؤذن لها بزيارة أهلها طوال تلك المدة إلا مرتين؛ أولاهما حين وفاة أمها ، والثانية حين وفاة أختها.

ويذكر أنها تأخرت مرةً في تلميع حذاء البيك الصغير ، فما كان منه إلا أن جذبها ومسح حذاءه بشعرها تأديباً لها.

ونتيجةً للقهر وكثرة البكاء بدأ بصرها يضعف ، وحاولت الفرار مرات ومرات ، ونتيجةً لسطوة الزوج ونفوذه كان يؤتى بها في اليوم نفسه ، ثم ينهالون عليها ضرباً وشتماً. ويوماً تلو يوم ، ونتيجة الإهمال والظروف الصحية اللاإنسانية التي عاشتها تراجع بصرها أكثر فأكثر ، حتى كُفَّت عيناها تماماً ، عند ذلك قذفوا بها خارج المنزل كما يقذف بكيس القمامة ، فأشفق عليها أهل الحي ، وقاموا بأخذها إلى دار للعاجزين.

وكانت إقامة الفتاة في هذه الدار رحمة لها ، مقارنةً بما كانت عليه عند هؤلاء المجرمين. علماً أن دور العجزة ـ ولا سيما المجانية منها ـ تعاني من تدني مستوى الخدمات ، ولكنها تبقى أرحم من فجور ذلك الرجل الذي طالما عاقبها بإطفاء السجائر في يديها وقدميها ، بل وربما كانت كثرة الضربات على رأسها هي السبب في ذهاب بصرها.

ومضت الأيام. . . . وبلغ ولدهم المعبود سن الزواج ، فأخذوا يتخيرون له الفتيات ، ويبحثون له عن فتاة بمواصفات قياسية. ووضعوا قائمةً من الشروط المعقدة؛ فلا بد أن تكون الفتاة بيضاء ناصعة ذات قوام ممشوق وشعر كسلاسل الذهب وعينين تغار الغزلان من حسنهما ، ولابد أن تكون شديدة الثراء وذات سلطة ونفوذ يتوافق مع سلطة أسرتهم ونفوذها.

ووقع الاختيار أخيراً على حسناء جميلة ، وكان الزواج. وكان أبو العريس يشتعل فرحاً وكأنه يتقلب في غرفات الجنة ، وتناسى إجرامه القديم في حق تلك الفتاة الفقيرة التي كان سبباً في ذهاب نور عينيها ، ولم يبالِ أحد بمصيرها بعد أن خرجت من دارهم ، أماتت أم عاشت ، وإلى أي نهاية قذفت بها الأقدار؟

حملت زوجة الولد ، وأصبح قدوم الحفيد أمراً وشيكاً ، وبدؤوا الانتظار على أحر من الجمر. وجاءت المفاجأة الكبرى! لقد ولدت الحسناء فتاة رائعة الجمال تشبهها ، ولكنها كانت فاقدة لحاسة البصر. وأصيب الجميع بذهول شديد ، وسيطر الحنق والغضب على الجد الظالم ، فلم يعد يميز بين سماء وأرض ، وانهال بالشتائم والسباب على الذات الإلهية ، فانطلق لسانه كأنه أفعى قد اشتعلت النار في ذيلها فهي تبث سمومها في كل اتجاه ودون أي تمييز.

لقد نسي ذلك الغافل أن الله يمهل ولا يهمل ، وأن الجزاء من جنس العمل. وأما الجدة فقد أخذتها ساعات طويلة من التفكير ، فعادت إلى الماضي تستعيد حساباتها وتسأل نفسها: هل ظلمت أحداً؟ هل أسأت إلى

أحد؟ ثم تبادرت إلى ذهنها صورة تلك الفتاة التي كانوا يضربونها على رأسها حتى فقدت بصرها ، وأخذ التعب النفسي يسيطر على كل ذرة في فكرها ونفسها ، وبدأت تشعر في كل موقف ترى فيه حفيدتها بسياط تلتهب على ظهرها.

إلا أن الجد استكبر وازداد وقاحة على ربه وتملكه الغرور ، وحاول أن يتعامل مع الموضوع على أنه صدفة ليس من ورائها هدف أو قصد.

وكعادتها مضت الأيام سريعة ، وبدأ أهل الزوج يشجعون ولدهم على الإنجاب ثانيةً ، وبعد تردد وخوف حملت المرأة ثانيةً ، وكانت المولودة فتاة جميلة أيضاً ، ولم تكن تعاني من أي مشكلة في عينيها ، فتخدر الجد سروراً ، وتنفست الجدة الصعداء. ولكن لم تمضِ إلا سنة واحدة حتى تسربت الظلمة إلى عيني الصغيرة الثانية ، عند ذلك أيقنت الجدة أن الموضوع ليس إلا نقمة إلهية.

وتزامنت هذه المصيبة مع فصل الجد من عمله ومنصبه الكبير ، فلم يحتمل تلك الصدمات المتوالية ، فأصيب بالجنون؛ إذ لم يكن له بقية من إيمان يثبته ويصبره. وحاول أفراد الأسرة إبقاءه في المنزل للقيام على رعايته ، ولكنهم سرعان ما قرروا ترحيله لإحدى المشافي العقلية ، بعد أن أصبح يتغوط في كل مكان من البيت ، بل ويتناول غائطه ويضعه في فمه!

وكان لا بد لمعالجته من صعقات كهربائية على رأسه ، وسبحان الله! لقد كانت هذه الضربات على رأسه تستهدف المكان الذي كان يتقصده في ضرب الخادمة الصغيرة ، فالجزاء ـ كما قلت ـ من جنس العمل ، وهذه سنة الله في خلقه ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

عند ذلك كان لا بد للجدة أن تدرك جريمتها ، فنزلت تبحث عن الفتاة التي شردوها من بيتها ، وعلمت بمكانها بمساعدة بعض الجيران ، فذهبت إليها

---

(١) إبراهيم: ٤٢.

وضمتها ضماً عنيفاً ، ولكن الفتاة لم تعرفها في البداية ، ولما عرفتها أصيبت بالذعر والهلع ، وفاضت عيناها بالدموع ، وتسلسلت إلى مخيلتها جميع أصناف العذاب والذكريات والآلام. . . . وأصرت الجدة على الاعتذار ، وتوسلت إليها لتسامحها. ولعل أغرب ما في القصة أن قلب هذه الفتاة الطيبة استطاع أن يسامح ويعفو!

وأخرجت الجدة الفتاة من تلك الدار ، وأسكنتها في بيتها ، وكانت تقوم على خدمتها بنفسها وتعاملها معاملة حفيدتيها ، لعل ذلك يكون تعويضاً وباباً للغفران.

ولعل من المفيد أن أورد هنا هذا الحديث الشريف؛ لأبين شدة محبة الله عز وجل لليتامى والمساكين ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«جاء رجل إلى يعقوب عليه السلام ، فقال له: يا يعقوب ، ما الذي أذهب بصرك وحنى ظهرك؟ فقال يعقوب: أما الذي أذهب بصري فحزني على يوسف ، وأما الذي حنى ظهري فحزني على أخيه. ثم دخل يعقوب إلى بيته ، فنزل جبريل فقال: يا يعقوب ، أتشكو ربك؟ فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. ثم عرج جبريل فقال يعقوب: أي ربِّ. . . ألا ترحم الشيخ الضعيف؟ أذهبتَ بصره وحنيتَ ظهره ، فردَّ عليَّ ريحانتي أشمهما وأضمهما ضمةً واحدة ثم افعل بي ما شئت بعد ذلك. فنزل جبريل عليه السلام ، وقال: يا يعقوب ، إن السلام يقرئك السلام ، ويقول لك: أبشر فلو أنهما كانا ميتين لأحييتهما لك لأُقِرَّ بهما عينيك. ويقول لك الله: أتدري يا يعقوب لمَ أذهبت بصرك؟ أتدري لمَ حنيت ظهرك؟ أتدري لمَ فعل إخوة يوسف ما فعلوه بيوسف؟

فقال يعقوب: لا أدري. فقال جبريل: يقول لك الله: أتاك يوماً يتيم مسكين ، وقد ذبحت لأهلك شاة ولم تطعمه. ويقول لك الله: يا يعقوب ما خلقت خلقاً أحب إلي من اليتامى والمساكين ، فاصنع لهم طعاماً يا يعقوب ، وادعهم إلى طعامك. وقال صلى الله عليه وسلم: «فكان يعقوب

كلما أصبح نادى مناديه: من كان مفطراً فليحضر طعام يعقوب. وكلما أمسى نادى مناديه: من كان صائماً فليأتِ طعام يعقوب».

فالله الله في ظلامة الضعفاء. فمن أراد أن يسلط عليه سيف الجبار فلْيستبِحْ حرماته من المستضعفين في الأرض.

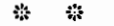

الخيانــة المتبادلــة

لقد ضرب صاحبنا بتعاليم الدِّين عرض الحائط ، وركل تقاليد الشرق الاجتماعية ، ولا سيما تلك التي كانت تسود المجتمعات العربية قبل أن تتسرب جراثيم الغرب لتفتك في أسرنا يمنة ويسرة ، وتعثو تخريباً شرقاً وغرباً. حيث غدت أزقتنا ومدارسنا أشبه ما تكون بأحياء في إسبانيا أو اليونان ، فعورات النساء بادية ، وزينتهن فاضحة ، وتمايل الشباب والفتيات على الأرصفة وهم يتضاحكون ويتبادلون أصناف المداعبة والهزل لا يخفى على متبصر. . . .

وإذا أحببت مشاهدة حي من باريس أو أحد شوارع شيكاغو فما عليك إلا الوقوف أمام مدرسة من مدارس الفتيات عند انصرافهن والتقائهن بأحبابهن وأصدقائهن ، فستجد ـ حينئذ ـ نفسك غريباً وقد اقتحمت العصور ، فأتيت من عهود التابعين إلى بقعة لاتنسجم مع كيانك العقائدي والثقافي. . . .

وكان صاحبنا ذا مكانة مرموقة ، ويشغل وظيفة مهمة في محافظة دمشق ، ويقصده كثير من الناس في شؤونهم ، وله كلمة مسموعة. . . . والإنسان ابن بيئته كما تقول القاعدة الاجتماعية ، ولابد له أن يتأثر بمن حوله ، لذا بدأ الضعف يتسلل إلى قلبه ، وانطفأت الشهامة في رأسه ، فانخرط في هذا البحر المتلاطم ، وسار مع التيار الجارف ، فهو لا يحب أن يغرد وحده خارج السرب!

ولطالما قال لنفسه: لِمَ لا أستمتع كما يفعل الآخرون؟ ولماذا أتفرد في مجتمع مليء بالمثيرات؟ وعلامَ أكابد الصراع وحدي؟ يجب أن أكون ابن هذا

العصر ، وأن أتحلى بالمرونة ، فلكل عصر مناخه ، ولكل ظرف قيمه ، ولكل زمان دولة ورجال.

وبدأ يتقرب من أصدقائه ، ويقيم الحفلات في بيته ، وتوافد عليه كثير من الناس ، فالحفلات المختلطة يسيل لها اللعاب ، ولاسيما إذا امتزجت بشيء من البروتوكولات الغربية. . . . فلا بأس من الاستمتاع بشيء من الموسيقا ، وما أجمل انسجام الفتيات بهذه الإيقاعات مع الفن الراقي ، مع كثير من نظرات الإعجاب التي لا تخلو من سهام شيطانية يحملها إبليس من عين رجل إلى جسد امرأة ومن عين امرأة إلى فُتُوة شاب.

ولا يخفى على كل مسلم قول رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

وقوله ﷺ: «يا علي ، لا تُتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة»[2].

ولم يكتفِ صاحبنا بإقحام نفسه في هذه الأجواء ، بل أجبر زوجته على المشاركة أيضاً حتى يتكامل البروتوكول الاجتماعي كما يسمونه ، مع أن الأَولى لها كان أن تمكث في بيتها لتربي أبناءها الثلاثة.

وكما هو معروف. . . فلكل شجرة ثمرة ، ولكل مقدمة نتيجة ، فقد تورط صاحبنا بعلاقات جنسية مع نساء بعض أصدقائه اللواتي أدمنَّ على أجواء الحفلات ، وعلى كلمات الإطراء والنظرات الثعلبية والهدايا الفاخرة. ونتيجة لحرصه على مواكبة تلك السهرات اضطر أن يبيع ضميره المهني ويأخذ الأموال مقابل غض النظر عن بعض التجاوزات ، وذلك ليتمكن من شراء المجوهرات الثمينة والساعات الفاخرة والأثواب النفيسة للنساء اللواتي بعن أنفسهن بهذه الأثمان.

---

(١) الحاكم في المستدرك (١٨/ ٢٤٦) ، ح٧٩٨٨.
(٢) سنن أبي داود (٦/ ٥٤) ، ح١٨٣٧.

وسبحان الله! فإن من العاصين رجل مهما أسرف على نفسه ، إلا أنه لا يرضى أن ينتقل هذا الوضع السيِّئ إلى أسرته؛ لأنه يعلم أن هذا خطأ ، وإن كان قد رضيه لنفسه نتيجة ضعفه ، فإنه لا يرضاه لزوجته وأولاده؛ لغيرته وحرصه عليهم ، فهذا الرجل قريب من الفطرة والعودة إلى جادة الصواب. أما صاحبنا فقد كان يزجُّ بزوجته في هذه المجتمعات الشاردة ، ظناً منه أنها لن تنحرف ولن تجد من يسعى خلفها ، فهي ذات جمال متواضع!

وقد بالغ في وقاحته ، فكان يعود إلى زوجته فيحدثها بعلاقته مع فلانة (زوجة أحد أصدقائه) ، ويسرد لها بغبطة تفاصيل مخجلة كانت بينهما ، فيقول: فعلتُ كذا وكذا! وفعلَتْ كذا! وأحبت هذا ، وكرهت ذاك!

ونسي قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا»[1].

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل الرجل في الليل عملاً ثم يصبح وقد ستره ربه فيقول: يا فلان ، عملتُ البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه ، يبيت في ستر ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[2].

فكان بمجاهرته هذه يفجر بركاناً من الحقد والرغبة بالانتقام في صدر الزوجة.

وروت لنا هذه الزوجة قائلة: أتيت يوماً إلى منزل الزوجية فجأة بعد عدة أيام من السفر ، وإذ بي أُدهشُ بزوجة أخي في بيتنا تقوم بنشر الملابس الداخلية ، فعلمت أن زوجي كان على علاقة غير شريفة معها...

لقد تمادى صاحبنا في غيِّه ، فلم يعد يفرق بين المتزوجة والعزباء ، وبين العقيم وذات الولد ، وبين امرأة الأخ أو زوجة الصديق...

وصدق من قال: إذا ركبت الشهوة رأس الرجل ذهبت بثلثي عقله. وإن

---

(١) ورد في كتب السنن.

(٢) صحيح البخاري (٩١/ ١٥) ، ح ٥٦٠٨.

ما يميز الإنسان ـ كما نعلم ـ العقل والدِّين ، فإذا كان الدِّين منعدماً ، ثم تلا ذلك ذهاب ثلثي العقل ، فاعلم عندئذٍ بأنك أمام وحش مستعر ليس له ضوابط وكوابح تمنعه من الاعتداء على الآخرين.

وتمادى الحقد في صدر هذه الزوجة ، وهبَّت الشياطين تداعب أفكارها وتدفعها للانتقام ، وما هي إلا أيام حتى وجدت نفسها فريسة بين براثن حلاق نسائي. لقد كانت الأسرة متحررة كما يقال ، فدخول المرأة إلى مراكز التجميل حيث يعبث الحلاق بشعرها ووجهها أمرٌ مألوف. ولِمَ لا وزوجها الموظف الكبير ذو الدرجة المرموقة يدفعها للمشاركة في الحفلات المختلطة ، بل ويدفعها للرقص مع الآخرين ، فتراه يلقي بزوجته إلى أحضان صديقه حتى ينال غايته من مراقصة زوجته.

وبدأت علاقة صداقة تنشأ بين هذا الحلاق و بين الزوجة ، ثم تطورت هذه العلاقة إلى أن عشقته عشقاً جنونياً ، فكان يصحبها إلى بيت أمه ، والزوج في سكرته ولهوه قد مضى بعيداً.

وكانت بعملها وخيانتها تشعر بأنها تقتص من زوجها الخائن وتشفي غليلها منه ، بالإضافة إلى حب شيطاني جذبها لهذا الرجل جذباً لا تمتلك كوابح لإيقافه ، أو تهدئة جريانه الخطر.

وشاء الله عز وجل أن تحمل هذه المرأة من الزنى ، ووفاءً لعشقها أصرت على الإبقاء على الجنين ، ثم ولدت أنثى ، وتعلق الزوج الخادع المخدوع بهذه الابنة تعلقاً عجيباً ، بل واحتلت في نفسه مكانةً فاقت جميع أولاده ، مع أنها ـ كما نعلم ـ ليست من صلبه ، ولعل هذا هوالمضحك المبكي.

ومضت الزوجة بعلاقتها مع الحلاق حتى اكتشفت أمه هذه العلاقة ، فصارا يلتقيان ويمارسان الخطيئة داخل السيارة في منطقةٍ جبلية تدعى قاسيون ، وأصبحا بذلك كقطط الشوارع ، باستثناء فارق بسيط؛ وهو أن القطط لا تلتزم بشريعة أو قانون ، ولا تمتلك بيوتاً تسترها عن عيون الآخرين.

وتمضي الأيام... وتستمر العلاقة يوماً وراء يوم ، ولا تزداد إلا عمقاً.

وكان لهذه المرأة جارة تثق بها وتصادقها منذ سنوات ، وفي لحظة طيش صارحت المرأة جارتها بهذه العلاقة ، فأخذت الجارة تهددها بكشف سرها ، وبدأت الزوجة تضعف أمامها ولا ترد لها مطلباً ، وكانت في بداية الأمر تطلب مالاً بين الحين والآخر ، ثم بدأت ترسلها إلى بعض الرجال لإرضاء نزواتهم ، وكلما امتنعت وأبت هددتها بكشف سرها .

لقد جاءت هذه البائسة لأحد المحامين تستشيره في كيفية التحرر من هذا القيد ، وتسأله عن سبيل قانوني لرفع هذا التهديد والتحرر من سوق الرقيق الأبيض الذي أرغمت على ولوجه .

ولكن العجيب أنها كانت لا تشعر بالندم على علاقتها بالحلاق النسائي ، ولكنها تشتعل غيظاً من جارتها التي تجبرها على معاشرة رجال لا تحبهم! وللأسف لا يوجد مخرج قانوني لمثل هذه الحالات .

ومازالت الفتاة الصغيرة تكبر . . . والحياة تمضي . . . والأسرة على حالها . ووراء الأبواب كثير وكثير من الأسرار .

* * *

اللحظة الأخيرة

قد ينسبها بعضهم إلى الصدفة ، أو الحظ ، أو . . . . ، لكنها رحمة الله تعالى وقدره .

لقد كان ذلك عندما توجه بعض الدعاة المسلمين إلى إحدى دول الغرب ، ويمَّموا شطر مسجدها ، وبين أخذ وردّ سألوا الإمام إن كان في منطقته مسلم لا يرتاد المسجد ، أو شارد عن جادة الصواب؟ فأجابهم: نعم ، أعرف رجلاً جاراً للمسجد ، وهو مسلم من دولة عربية خليجية ، لكنه لا يأتي المسجد ، ولا يحضر حتى صلاة الجمعة ، وهو أغنى العرب في هذه المدينة .

يقول الداعية: فذهبنا إليه ، وطرقنا بابه ، فلم يفتح لنا ، فانتظرنا برهةً ، ثم عاودنا الكرّة ، ففتح لنا الباب وهو متجهم عابس الوجه ، وقال: ماذا تريدون؟

فقلنا له بعد أن سلمنا عليه: نحن إخوانك ، جئنا نزورك في الله .

قال: أسرعوا ، ماذا تطلبون؟

قالوا: جئنا لزيارتك .

قال: ماذا تبغون؟

فأجابوه: اصطحابك إلى المسجد .

قال: إن شاء الله ، اذهبوا الآن .

قالوا: لا نذهب حتى تأتي معنا .

قال: إذاً سأبدل ملابسي وأتوضأ ، ثم ألحق بكم .

فقالوا: لن نغادر حتى تأتي معنا.

قال: سبحان الله! ما أشد إلحاحكم، انتظروا قليلاً ريثما أتوضأ.

فوقفوا حتى اصطحبوه بيدهم إلى المسجد، ولما انتهى من صلاته جلس يستمع إلى شيء من القرآن والأحاديث النبوية، فلما فرغ الشيخ من كلامه نظروا إليه فإذا بعينيه تذرفان.

لقد كانت نسمة إيمانية خالطت شغاف قلبه، فغيرت مسار حياته، بل ربما رسمت له حياة جديدة!

وعلم الرجل أن هؤلاء المسلمين في رحلة دعوة إلى دين الله تعالى، فطلب رفقتهم، وكان ذلك. وفي مدة قصيرة أصبح هذا الشارد من أقرب الناس إلى الله تعالى، ومن أكثر الناس التزاماً بدينه، وسخر ملايينه في سبيل الدعوة إلى الإسلام.

وكان أن تكلم يوماً عن تلك اللحظة... اللحظة الأخيرة! وفاض بما كان يكتمه، فقال للشيخ: أتذكر ذلك اليوم الذي أتيتم به إلى منزلي؟

قال: نعم.

قال: أتدري ماذا كنت أفعل؟

قال: لا، وما الذي يدريني!

قال: في ذلك اليوم هاجت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، وامتلأت هماً وغماً وتعاسةً وشقاءً، فأقدمت على الانتحار. وكنت قد علقتُ حبلاً في سقف الغرفة، ووقفت على الكرسي، وأدخلت الحبل في عنقي، وحاولت دفع الكرسي بقدمي، ولكنه لم يسقط، فتعجبت لذلك، ثم سمعت الباب يطرق، فقلت في نفسي: هل أرد على الباب، أم أدفع الكرسي ثانية وأتخلص من الدنيا بما فيها؟ قال: فدفعت الكرسي ثانية، ولكنه لم يسقط، فنزلت عن الكرسي، وقلت في نفسي: أفتح الباب ثم أعود. ففتحت الباب لأرى طوق النجاة الذي مده الله عز وجل لي بدل حبل الموت الذي مددته لنفسي، لقد أرسلكم إليّ لترافقوني إلى المسجد في اللحظة الأخيرة، وكانت

حياتي الجديدة ، ولولا ذلك لكنت الآن في سقر ، ولكنت أزهقت روحي بيدي.

فسبحان الله الذي شاء برحمته التي وسعت كل شيء أن ينقذ هذا الإنسان من شقائه وشيطانه ، فتداركته رحمة الله في اللحظة الأخيرة. لقد كان هذا الرجل فاحش الغنى ، وكان منكباً على المعاصي؛ خمر ونساء وشهوات وملذات... ولكن الكآبة كانت تتشبث في صدره وتزداد كلما ازداد انغماساً في معاصيه؛ لأن السعادة لا تكون إلا بالقرب من الله عز وجل ، ولا بد للإنسان أن يفرق بين السعادة الحقيقية وبين اللذة المؤقتة ، فالخمرة والسهر والسياحة والذهب والأموال ربما تأتي باللذة لدقائق أو ساعات ، لكنها لا تلبث أن تنقضي وتزول ، لتغزو الكآبة صدر العاصي ونفسه.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[1].

وأذكر أيضاً أن شاباً أتى عالماً من علماء الشام ، فقال: إني عزمت على الانتحار ، وإني منتحر لا محالة. فقال له العالم: لا بأس عليك ، ولكن أجِّل انتحارك أسبوعاً واحداً ، وفي هذا الأسبوع التزم الصلوات الخمس في جماعة ، ثم ارجع إليّ بعد ذلك.

يقول العالم: فرجع إلي بعد أسبوع ووجهه يتلألأ بشراً وسروراً ، وقد عزم على متابعة الحياة ، ولكن بأنس من الرحمن ، لا بغواية الشيطان.

إن كثيراً من الناس اليوم يتعاطون أدوية مضادة للاكتئاب ، وليتهم يضيفون إلى تلك الوصفة الطبية وصفة طبيب الأطباء خالق البلاء والشفاء؛ تلك الوصفة التي تتجلى في قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[2].

---

(١) سورة طه: ١٢٤ ـ ١٢٦ ، ومعنى ضنكاً: أي معيشة مليئة بالحزن ، والشقاء ، والضيق ، والهموم.

(٢) الرعد: ٢٨.

فهو عز وجل صانع الإنسان ، وهو أدرى بما صنع ، وبما يصلحه .

وليس معنى ذلك إبعاد الناس عن المعالجة الدوائية وتنفيرهم عنها ، فلا بد للإنسان من أن يأخذ بالأسباب المادية أيضاً ، ولكنها لا تكفي وحدها ، بل لابد من الصلوات الخمس وشيء من ذكر الله لقهر الوساوس والاكتئاب ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تُعدُّ ولا تحصى ، والتجربة أكبر برهان .

* * *

النتيجـــة الطبيعيـــة

لقد وقعت أحداث هذه القصة في حيّ من أحياء دمشق القديمة ، وكم حدثت ـ وتحدث ـ حكايات مشابهة لها كل يوم ، فالتاريخ يعيد نفسه مراراً وتكراراً ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وإنما نسرد قصتنا اليوم؛ ليتجنب الناس الوقوع بأمثالها ، فالذكي هو الذي يتعلم من تجارب الآخرين ، ومتوسط الذكاء من يتعلم من تجاربه الشخصية ، وأما بليد الذهن فهو الذي يقع في الحفرة مرات ومرات . . . ولا يفقه!

وقد صحَّ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله: «لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين»[1].

وقوله ﷺ: «المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ حذِرٌ وقافٌ»[2].

إنها حكاية أسرةٍ مكونةٍ من أمٍّ وثلاثة أبناء شباب عزَّاب. وقد كبرت المرأة ورقَّ عظمها وانحنى ظهرها ، ولم تعد قادرةً على القيام بأعباء البيت ، وكم حضَّت أكبر أبنائها على الزواج عفةً له وعوناً لها ، ولكن الشاب كان من المسوِّفين.

وأي فتاة في هذه الأيام ترضى بأن تسكن مع أم زوجها وإخوانه ، وتكون أسيرة في بيتها ولباسها وحركاتها ومضجعها ، وهي تعلم أن أعين الرقباء ترقب وتسجل ، وتحاسب أيضاً؟

لذا ضاعت مناشدات العجوز لولدها ، ولم يعد أمامها إلا البحث عن فتاة

---

(١) صحيح البخاري (١٧/ ٩٧) ، ح ٥٦٦٨.

(٢) مسند القضاعي (١/ ٢٠٥) ، ح ١٢٢.

قروية فقيرة تقوم على خدمة العائلة ورعايتها ، فبدأ السعي حثيثاً إلى أن انتهى بهم أخيراً عند قرية في سفح جبل القلمون ، فهناك أسرة مستعدة لتأجير ابنتها للخدمة في الشام مقابل مبلغ شهري يكون عوناً للأب لمتابعة رسالته في الإنفاق على أبنائه العشرة ، فقد أصبحت تكاليف الحياة شاقةً ثقيلة لا طاقة لمتوسط الحال على حملها ، فكيف للفقير الذي التصقت يداه بالتراب فاقةً؟! لا سيما أن كثيراً من الفقراء باتوا ينافسون الأرانب في الإنجاب بثقافة عجيبة وبمفاهيم خاطئة في تفسير النصوص الشرعية.

وانتقلت الفتاة من بيت أبيها ودفء أمها إلى مدينة كبيرة تفيض بالملايين من البشر ، ولكنها سرعان ما أتقنت فنون تدبير المنزل ، فقد أوتيت ذكاءً لامعاً وسرعة في الفهم والإدراك ، بالإضافة إلى رشاقة في الجسم وفتنة في الوجه والجسد والصوت.

ولا تخفى حساسية سن المراهقة على كل عاقل لبيب صادق مع نفسه؛ لذلك صنَّف علماء التربية والنفس بحوثاً طويلة في مخاطره ومشكلاته. أضف إلى ذلك أن الفتاة كانت تسكن بين ثلاثة عزاب ، وتتجول من غرفة إلى غرفة ومن الحمام إلى المطبخ ، وتتباسط مع هذا وذاك. . . .

وشيئاً فشيئاً خلعت حجاب رأسها متماشية مع هذه الثقافة العجيبة التي أصبحت سائدةً منتشرة بين أكثر العائلات ، فقد كنت ـ مثلاً ـ أدخل إلى بيت أحد أقاربي ، وكانت ابنته تدخل علي دون غطاء الرأس وتمد يدها مصافحة ، ولم أكن حينذاك تخصصت في الشريعة الإسلامية ، فكنت أصافحها ، ولم يبلغني في ذلك الوقت قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد ، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»[1].

ومع ذلك وعلى حداثة سني كنت أتعجب وأسألها قائلاً: ألست محتجبة في الطريق؟

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٥/ ١٤٣) ، ح ١٦٨٨.

فتجيب ضاحكة: لا حجاب في البيت! وكأنها تسرد قاعدة شرعية أو حديثاً نبوياً.

وما زالت هذه الثقافة سائدةً اليوم في كثير من الأسر.

وكذلك كانت الفتاة القروية التي بدأت تخفف من ثيابها وحيائها، وأذكر أنني ذهبت مرة لزيارتهم، ودخلت الفتاة تحمل بين يديها فناجين القهوة، وكانت ترتدي ثوباً لا يغطي ركبتيها مع بياض ناصع يخطف بصر التقي، فكيف بأمثالنا من الناس؟!

ولا شك بأن الشباب الثلاثة أشبه بمراجل تغلي وتزداد غلياناً مع كل حركة أو ضحكة، وكانت تلك الفتاة أشبه بالبارود، ولم يكن من الحكمة وضع البارود أمام النار في مكان واحد؛ لأن الانفجار يكون وشيكاً. وهذا ما نراه في كثير من المدارس المختلطة، إذ تجلس فتاة في ريعان الصبا إلى جنب فتى في مثل سنها، وقد تقاربا في مقعد واحد حتى كادا يتلامسان، وربما أصاب وجه الشاب شيءٌ من شعرها إذا حركت رأسها ملتفتةً.

ثم نقول لهؤلاء الشبان والشابات: ركزوا أذهانكم في فهم هذه المسألة الرياضية أو القاعدة اللغوية! وأنى لهم ذلك وقد أصبحت غريزتهم هي المسألة الرياضية والقاعدة اللغوية التي غزت عقولهم فلم تترك مجالاً لشيءٍ آخر! لذلك خرجت علينا الإحصائيات بمئات الآلاف من طالبات المدارس اللاتي حملن في أحشائهن نطفة من زميل دراسي، فكانت مقاعد الدراسة منتجة لعشرات الآلاف من أطفال الزنى.

ونتيجة لهذه الحقيقة العلمية التجريبية قررت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فصل الذكور عن الإناث في المدارس، لا سعياً لتحقيق الفضيلة والطهر، بل لتحقيق الثمرة العلمية من الدراسة، وليت كثيراً من الشعوب الإسلامية الساعية للتحضر تتعظ من تلك التجربة الأمريكية.

وكم نصحت المرأة أبناءَها بوجوب إخراجها قبل أن يشتعل البارود، لكنهم أخذوا هذه النصيحة بشيءٍ من النفور، ومرة كان رد تلك العجوز التي لم تُثقل

السنوات الطويلة عقلها: إن أبنائي ملائكة تمشي على الأرض ، وهذه الخادمة طفلة.

فقلت لها متهكماً: لكن هذا الملاك قادر على المعاشرة الزوجية ، وليس له أجنحة ، وتلك الطفلة قادرة على إنجاب طفل يزن خمسة كيلو غرامات.

فأجابتني العجوز بعد أن أصلحت شيئاً من أسنانها: إنك سيِّئ النية ، وتنظر بمنظار أسود ، نقِّ صدرك وتفاءل...

وكيف لعاقل أن يتفاءل وهو يرى تلك الفتاة التي تفتن العابد وتستزل الزاهد وتحرك الشيخ الفاني ، وإنها لتسحر بكل نظرة وبكل حركة ، ويكاد جسمها ينفجر إغراء بالمعصية.

لقد كانت الفتاة متقنةً لفنِّ الغواية بالفطرة؛ إذا مشت تكسرت وتمايلت ، وإذا تكلمت أشفعت كلامها بابتسامة من شفتيها وغمزة بعينيها وحركة بكتفيها... فأين تعلمت كل هذا؟ فلو أنها ربيت في مسارح مدينة (نيس) الفرنسية وعلى شواطئها لما أتقنت أكثر من ذلك ، فكيف بها وقد نشأت في خرابات قريتها النائية!

ودارت الأيام ، وطالت الليالي ، ووقع الشبان الثلاثة في حبها ، فاجتمعت فيهم صبوة الحب في نفوسهم ، وإغراء الجمال في خادمتهم ، وحماقة العجوز التي تسُوس حياتهم.

وليتهم علموا خطورة هذا الاختلاط البعيد عن الحشمة ومنعوا الفتاة من ارتداء الثياب المثيرة للغرائز ، ولكن الجهل والغريزة والبعد عن امتثال سنة النبي عليه الصلاة والسلام من شأنها أن توقع صاحبها في المهالك ، فقد ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السُّرُوج ، كأشباه الرجال ، ينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنوهن فإنهن ملعونات»[1].

---

(١) مسند أحمد (١٤/ ٣٢٤) ، مسند عبد الله بن عمرو.

ولعل النبي ﷺ أراد بكلمة «السُّرُج» السيارات ، والله أعلم. وهو يُحدِّث عن رجالٍ انتشروا في زماننا هذا ، يصلون في المساجد مع الجماعة ، وإذا رأيت ابنة أحدهم أو زوجته ظننت أنها راقصة في أحد الملاهي أو نادلة في أحد البارات.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1].

وأما قوله: «كأسنمة البخت المائلة»؛ فهو تشبيه لقصات شعورهن التي تشبه سنام الجمل ـ أي ظهره ـ بارتفاعه وميلانه ، وهذا ما نراه اليوم قد انتشر بين القصات التي استوردتها مجتمعاتنا من الغرب ، وكأن النبي ﷺ يرى ببصره وبصيرته مخترقاً القرون ويصف ما نعيشه نحن اليوم.

وأما قوله: «كاسيات عاريات»؛ فيقصد به كما قال كثير من العلماء: إنها ثياب تشف عما تحتها ، وتبدي شيئاً وتخفي شيئاً ، فهي ليست ساترة سابغة.

وأما قوله: «مائلات مميلات»؛ فمعناه: أنها تُميل الرجال إليها للانحراف والزنى بعد أن كانت مائلة بذاتها منحرفة بطبعها وسلوكها.

ولعل هذا ليس بعيداً عن أسرتنا اليوم؛ فقد بلغ التراخي فيها حده ، وبلغ بها الأمر أن تدخل الصابون لأحدهم في الحمام أثناء اغتساله. . . . !

وكانت الدار ملعباً للشيطان الذي استولى على عقل الأخ الأكبر وفؤاده ، حتى كانت تلك الليلة السوداء حين تأججت غريزته ، وسرت نار الفتنة في جسده ، فدخل عليها ليلاً ، وكان ما كان. . . وذبحت العذرية.

ولعلها لم تكن زلة فحسب ، بل كانت سلسلة من الزلات ، ففي ليلة من الليالي دخلت العجوز غرفة الخادمة وإذ بها بين أحضان أحد أبنائها ، واكتشف الأخ الكبير أن أخاه الصغير أيضاً قد تورط بعلاقة محرمة مع الخادمة.

---

(١) رواه مسلم (١١/٥٩) ، ح ٣٩٧١.

عند ذلك ذهلت الأم وأدركت ضآلة عقلها ، وتيقنت أن أبناءها ليسوا ملائكة أولي أجنحة ، وبالتحقيق في الأمر علمت أن تلك الخادمة التي وصفتها بالطفلة تتنقل بين فُرُش أبنائها واحداً تلو الآخر .

وليتها فقهت منذ البداية أن فقه الشريعة أعلى وأجَلُّ من حكمتها وفهمها الضئيل للأمور .

وكان من حكمتها ـ وكعادة أكثر الناس في مثل هذه المواقف ـ أن أسرعت لإرسال الخادمة إلى أهلها ، ولكن انتفاخ بطنها يُحدِّث بما أصابها ، فكان أن ذبحت الفتاة على يد أخيها ذبح النعاج .

ولم يكتفِ الأخ الغيور بقتل أخته ، بل تابع قصاصه فبطش بالشابين ، ثم أحيل إلى القضاء .

وهكذا ختمت قصتنا التي سطرها الواقع بدمشق وقيدتها ملفات القضاء ، هذه القصة التي تقاسم أبطالها الأدوار؛ فبعضهم في القبر تحت الثرى ، وبعضهم في أقبية المعتقلات ، وأما العجوز فأخذت تحثو تراب الخيبة والندم على رأسها ، ولكن بعد فوات الأوان .

إن كثيراً من أشباه هذه الحادثة يحدث في مدننا وقرانا اليوم ، ولعل استصغار إشعال السيجارة في محطة للوقود من شأنه أن يُلحِق الأحياء بالأموات .

* * *

ظن أنه صياد فاصطادوه

لقد كان صاحبنا تاجراً ثرياً يمتلك متجراً فاخراً للأقمشة في منتصف سوق من أهم أسواق دمشق ، وثمن متجره يبلغ ملايين الليرات ، ويمتلك مزرعة في إحدى المصائف القريبة من دمشق ، بالإضافة لكونه قد أوتي حذقاً وخبرة في تجارة الأقمشة ، فأكثر التجار يعلمون من أين تؤكل الكتف. وكان له زوجة وثلاثة أبناء ، لكن حياته الأسرية كانت تمر بعواصف ومناخات متقلبة؛ ففي بعض الأوقات يسودها جو رومانسي فيه كثير من العذوبة والهدوء ، فتسير الأحداث كسيمفونية رقيقة أشبه بأمواج البحر الصيفية.

ولكن هذا الهدوء الساحر لا يطمئن ، فلربما كان هذا ما يسمى هدوء ما قبل العاصفة ، إذ بلحظة سريعة غاضبة يصعق أذنيك صفير ريح صرصر مليئة بالنار والتمرد ، عند ذلك تحتاج السفينة لبحار شديد المهارة عميق التجربة يحسن التعامل مع جبال من الأمواج فيتسلل من بينها كي لا تبتلعه.

والمرأة ـ كما نعلم ـ إذا ما لعبت برأسها وساوس شياطين الإنس والجن يتحول عقلها لكرة تتقاذفها أقدام العفاريت ، وقد قدمت ذكر شياطين الإنس على إخوانهم من الجن عمداً ، وذلك نظراً لقوة التأثير وخبث الأسلوب ، فالعين لا تعلو على الحاجب ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

ولعل أكثر المجالس خطورة هي تلك التي تتحلق فيها مجموعة من النساء حول بعضهن بعضاً يحتسين القهوة ، وينفثن بدخان تبغهن ويتبادلن أحاديث في

---

(١) النساء: ٧٦.

شتى الموضوعات ، وهذه الأجواء تكون عادة بؤرة للفيروسات التخريبية على المستوى العائلي والأخلاقي والنفسي والجنسي أيضاً.

فترى كل واحدةٍ منهن غدت حكيمة زمانها وفيلسوفة عصرها ، لكنها تمتلك من الفلسفة والحكمة ما يقطر له جبين أرسطو خجلاً لضآلته ، فيتبادلن الخبرات ويسلطن الأضواء على كوامن القهر التي يتعرضن لها في حياتهن مع أزواجهن ، الذين ورثوا عن أبي جهل وأمية بن خلف كل صلفهم وتجبرهم. وبعد هذه الاجتماعات النسائية تتوجه المرأة إلى بيت زوجها كقنبلة موقوتة ، تنتظر ساعة الصفر لتدوي منفجرة فتحرق وتشوه كل من حولها.

لقد كان صاحبنا يعاني من هذه الحالة ، ولطالما فكر في الانفصال عن زوجته ، ولكن وجود الأولاد كان يفتّر من عزيمته في كل مرة ، فتراه يعود لدائرة النار التي يعيش فيها. وكم هو مؤلم ـ بل مدمر ـ أن تكون الأجواء الأسرية دوائر للنار وللعذاب بدل أن تكون مرسى للطمأنينة والراحة والسكينة.

إن الله عز وجل عندما خلق آدم عليه السلام أخرج من ضلعه زوجته حواء عليها السلام؛ لتكون سكناً له وتكملة لنفسه ، فهي منه وهو منها. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

وقال المصطفى ﷺ: «مسكين مسكين مسكين؛ رجل ليس له امرأة ، وإن كان كثير المال. مسكينة مسكينة مسكينة؛ امرأة ليس لها زوج ، وإن كانت كثيرة المال»[2].

لكن المرأة عندما تستخف عقلها مستمعةً لنصائح صديقاتها التي لا تخلو عادة من حسد وغيرة ، بل وعُقد في كثير من الأحيان ، فإنما تدمر قصرها الذي طالما حُسدت عليه. وهذه خصلة تتصف بها كثير من النساء اللواتي لا يتقين الله عز وجل ، فترى إحداهن تُبغّض الزوجة بحياتها لتحظى بذلك الزوج ، وفي

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٤١/ ٣٥٥) ، ح ٦٧٧٧.

ظل هذه الأجواء يمسي الرجل ريشة في مهب الريح قد تقع صيداً ثميناً بيد أي عابثة ، وإن كان حظها من الجمال قليلاً .

لقد ضاقت الحياة بصاحبنا ، فأسرته مفككة ، وزوجته ساخطة على الرغم مما يكلأ هذه الأسرة من بحبوحة العيش والرفاهية ، ولم يكن حكيماً في معالجة مشكلاته وأمور حياته الأسرية ، لذلك كان يشعر بعوز عاطفي .

وأثناء جلوسه يوماً خلف مكتبه في متجره الفاخر دخلت امرأة كأنها حورية ، هربت من الجنة لتهبط إلى أرضنا فتأسر القلوب قبل العيون ، وتثير في الصدور براكين من الغرائز وأمواجاً من الأحلام ، وقد أوتيت من السحر الشيء الكثير ، وكان يبدو عليها الثراء الواضح؛ إذ كانت ترتدي ثياباً من أغلى المحلات الراقية العصرية ، وتحمل حقيبة من جلد الأفعى ، وكانت حقاً أشبه ما تكون بالأفعى؛ فهي ملساء الظاهر ، ولكنها محشوة سماً في الداخل . فذهل بأنوثتها ورقتها ، وسال لعابه ، وبرقت عيناه ، واشتعل شباباً وتوقداً وكأنه عاد أصغر من عمره بعشرين سنة ، فقام يخدمها ويلبي طلباتها ، ولم يفاجأ حين اشترت أقمشة بقيمة سبعين ألف ليرة سورية في خمس دقائق .

وألحَّ صاحبنا على حسنائه أن تحتسي في مكتبه داخل المتجر فنجاناً من القهوة ، فوافقت بدلال وغنج ، وبدأت حبائل الشيطان تشده من عنقه وتلتف حوله تجذبه إليها ، وبدأ يبثها آلامه العاطفية وتعاسته الأسرية ورومانسيته الراقية التي لا مكان لها عند امرأة لا تفقه إلا لغة القنابل العنقودية . وكانت تستمع إليه بإصغاء واهتمام وشفقة .

ومرت ساعة وهما جالسان معاً ، ولم يكن يشعر بالوقت ، فقد مضت الساعة وكأنها لحظة واحدة في زمن مسحور لا يؤمن بالمواقيت . وعندما أصرت على المغادرة انحنى ممسكاً بيدها مقبلاً لها حسب البروتوكولات المخملية ، التي يعبدها في مجتمعاتنا بعض الناس الذين نسوا عبادة الله عز وجل فأنساهم الله أنفسهم .

ونسي قول المصطفى ﷺ: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد ،

خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»[1].

وبدأت المكالمات الهاتفية بينهم ، ثم تكررت مرة بعد مرة ، وتعززت الصداقة سريعاً ، هذه الصداقة التي يدافع عنها كثيرون ممن باعوا ضمائرهم للغرب ، وآمنوا بالصداقة بين الذئب والحمل ، وبين النار والشجر.

وتتابعت اللقاءات ، وظن صاحبنا الفَطِن أنه قد وقع على كنز ماسي ، وأن الله أراد أن يتحفه بحورية من الجنة وهو يمشي على الأرض. وسرعان ما بادر يطلب الزواج منها ، ولكنها أبت مبررة ذلك بتجربة سابقة أورثتها الخوف من الارتباط الأسري ، بالإضافة لرغبتها بالحياة كعصفورة حرة تتنقل من غصن إلى غصن. ربما شبهت هذه المرأة نفسها بعصفورة تتنقل من غصن إلى غصن ، ولكنها في الحقيقة كانت أشبه ما تكون بفأرة تتنقل من مصرف للمياه المالحة إلى آخر ، فتحمل من كل جراثيمه وآفاته. ولأنها كذلك لم تمانع أبداً بأن يكونا صديقين على طريقة المجتمعات الغربية: (بوي فرند). ولا يخفى على القارئ أن مجتمعاتنا العربية أضحت تؤمن أيضاً بهذا المبدأ المشؤوم ، ولاسيما هذا الجيل الجديد الذي استساغ الاختلاط في كل مكان ، ورضع لبان القيم المستوردة ، بعد أن نسي أصوله الإسلامية التي لم تعد تشكل في نفسه سوى قشوراً من الفلكلور والتراث. ومن أبنائنا اليوم من يؤمن بالعلاقات والصداقات بين الجنسين علناً دون مداراة ، ومنهم من ينكرها في الظاهر ولكنه يؤمن بها ويمارسها في الباطن ، وذلك تبعاً للجو الاجتماعي الذي يعيش فيه.

ومضت العلاقة في طريقها المعروف: إعجاب... ثم غزل... ثم نظرات خبيثة... فلمسات أشد خبثاً... ثم تدور السكرة في رأسيهما ولا يستيقظان إلا بعد أن تلطخا بإثمهما!

لقد استساغ صاحبنا حياته الجديدة ، وبرر لنفسه ذلك بأنها متنفس له من جوه الأسري الذي يخنقه دوماً. ومرت الأيام ، وغدا صاحبنا مدمناً على تلك اللقاءات التي كانت تقوم في مزرعتها الفاخرة التي تعيش فيها وحدها ، والمليئة

---

(١) سبق تخريجه.

بأفخر الأثاث وكل مظاهر الترف والإسراف.

ودعته ذات يوم لسهرة أقامتها في مزرعتها ، ولما حضر إليها ملبياً عزَّفته على مجموعة من رجالات المجتمع المخملي ، فكان منهم التجار والأطباء وبعض كبار الضباط أيضاً. وفي مثل هذه الحفلات تدور كؤوس الخمر وترتفع ضحكات النساء الماجنة.

ثم اكتشف أن من بروتوكولات هذه الحفلات لعب القمار أيضاً ، ولم يكن صاحبنا معتاداً على هذه الأجواء ، ولكن صديقته التصقت به تجذبه من يده من طاولة إلى أخرى وترفع من قدره أمام ضيوفها ، فطافت نشوة من الخدر في رأسه ، وبدأ يشاركهم خمرهم. . . . وقمارهم أيضاً. وكعادة مدمني الميسر يسَّروا له الربح في البداية استدراجاً له وجراً لقدمه في هذا الوادي المأفون ، فاستطاب هذه الأجواء ، وبدأ يدمن على اللعب أيضاً.

ولا يخفى عليك أن الميسر إدمان أشبه ما يكون بإدمان المخدرات؛ يسري في أوردة صاحبه مخالطاً الدم. ولعلك علمت باكتشاف المادة الكيميائية التي يفرزها الدماغ فتختلط مع الدم عند مدمني هذه الآفة ، وبذلك يكون إدماناً فيزيولوجياً ونفسياً في آن واحد.

وبدأ صاحبنا يغرق في هذا البحر وظلماته ، والقمار صديق مدمر ، فهو لا يترك صاحبه حتى يحرقه ويعريه من أمواله أولاً ، ثم من عرضه وكرامته. وأخذ يخسر ويخسر ولا يزداد إلا إقبالاً وشبقاً ، كحال الذي يشرب من البحر كلما شرب ازداد ظمؤه ، وهيهات لشارب الملح أن يرتوي.

وتابعت الأفعى نفث سمومها تؤمِّله بالفوز وتعويض ما خسر ، ولما أصيب بعجز مالي حاد اقترحت عليه الاقتراض من المصارف الربوية بضمان متجره ومنزله ، فوافقها ناسياً وعد الله عز وجل للمرابين بالإفقار في قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[1].

وانحدرت تجارته ، وساءت أحواله مع زوجته وأولاده ، وبدأ تمرد الأولاد

---

(١) البقرة: ٢٧٦.

يطل برأسه بجرأة متزامناً مع تقصيره بالنفقة ، وبدأ للضياع طعم جديد ، فقد فُقدت اللذة وأصبحت المرارة تلف الفم وتحرق اللسان .

وبوسعك أن تتخيل حال زوجته الساخطة في أيام الرخاء ، فكيف سيغدو حالها مع الشدة والضيق؟!

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «خير نسائكم الولود الودود المواسية المواتية ، إذا اتقين الله»[1]. ومفهوم المخالفة من هذا الحديث أن شر ما يبتلى به الرجل لشقاء دنياه هي المرأة السيئة .

لقد كانت تجتاح البيت أيام الرخاء عواصف بحرية من شأنها التدمير والتحطيم ، أما اليوم فقد أصبح بركاناً يقذف بحمم حارقة ، لا تذيب الجلد فحسب ، بل تسحق العظم أيضاً حتى تحيله رماداً .

ولم يقف صاحبنا ، بل تابع طريقه في الانحدار حتى حجز البنك على متجره ومنزله . وعندما بُلغ بقرار الحجز كاد دماغه ينفجر ، فتوجه إلى عشيقته مذعوراً مستغيثاً ، عند ذلك أسفرت المرأة عن أنيابها ، فرأى بأم عينيه حقيقتها البشعة . . . لقد طردته من بيتها طرد الأذلاء ، فلم يعد لها به مأرب بعد إفلاسه ، ولاسيما أنها قد شُغلت بصيد جديد أحمق آخر لتدخله ناديها المخملي . عندها أيقن صاحبنا أنه كان صيداً ولم يكن صياداً كما ظن واعتقد .

لقد كانت هذه المرأة تدير شبكة للقمار ، وتختار من تريد الإيقاع به بحذق كبير بعد دراسة وتمحيص ، وتتقن تمثيل دورها إتقاناً يفوق ممثلات هوليود ، لتوقع صيدها في الفخ بعناية وإتقان .

لقد قدّر أن هذه المرأة سعادته وسكينته ، فكانت حتفه وهلاكه . فأحمق الناس الذي يلامس الأفعى ليستمتع بنعومة ملمسها ويتناسى غدر طبعها وسمها الناقع .

وتناسى قوله عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ

---

(١) السنن الكبرى ، للبيهقي (٧/ ٨٢).

رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

لقد ضرب صاحبنا بتعاليم الله عز وجل عرض الحائط ، فوقع في ضنك وشقاء ، وهذا من سنن الله عز وجل في أرضه وعباده ، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ولا أنسى قصة تلك المرأة التي شاعت بدمشق وغدت مثلاً على ألسنة الناس ، حيث كانت قد ابتليت بزوج مقامر ، وحين أفلس وخَوَتْ جيوبه ، اتفق مع زميله أن يلعب على شرف زوجته ، وعندما خسر في تلك الجولة دخل إلى زوجته قائلاً: استحمي ، فإني مضطر أن أُدخل عليك صديقي. فما كان منها إلا أن صبت الوقود على جسدها وأحرقت نفسها.

لعلك تستبعد أن يصل المرء إلى درجة من الانحدار والخسة بحيث يراهن على شرفه وعياله ، ولكن الحقيقة أن الوقوع في الإدمان كالمخدرات أو القمار يذهب بعقل المرء وكرامته إلى ما لا يتخيله بشر.

لقد أضاع صاحبنا أهله وعياله الذين لم يعد لهم مأوى يشعرون فيه بالسكينة والستر ، وضاع مورد رزقهم ، وكفى بهذا مصيبة تمتد آثارها إلى الآخرة ولا تقتصر على حدود الدنيا ، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت»[3].

وجَرْجَرَ صاحبنا قدميه لابساً لباس الخيبة والخزي بعد أن أيقن بسفاهة خبرته في هذه الحياة على الرغم من حنكته التجارية ، ودخل بيته وقد امتلأ رأسه غضباً وهمّاً ، فعلا الصياح وانهالت الشتائم ، وأتبع ذلك اشتباك بالأيدي بينه وبين زوجته ، وانهال عليها ضرباً ، فأسرع ابنه ليدفعه عن أمه ، فأوقع أباه على الأرض ، عند ذلك فقد صوابه وتربع إبليس على عنقه ولم يعد يميز ما يصنع ، فأخرج مسدسه من جيبه وأطلق رصاصة على ولده فأرداه قتيلاً!

---

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) سنن أبي داود (٥/ ١٢) ، ح١٤٤٢.

لقد شهدت محكمة الجنايات في دمشق هذه الحادثة ، وحكمت على الرجل بالسجن المؤبد. وبذلك ختمت أحداث هذه القصة الواقعية ، فقد كُلِمت هذه الأسرة بنكبة عظيمة فغدت عبرة ومثلاً.

ولابد أن أقول: إن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ـ ولو للحظة واحدة ـ أن يصل إلى هذا المصير ، ولكن سلم التنازلات يبدأ بدرجة واحدة ، ثم يتابع الدرجات واحدة تلو أخرى ، حتى يجد نفسه قد استقر في القاع من حيث لا يدري. فأصلُ الزنى نظرة ، وأكبر جريمة قتل بدأت بكلمة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، وعود ثقاب واحد من شأنه إحراق قرية بمن فيها. فيجب إغلاق الأبواب منذ البداية؛ لكيلا يتسلل البلاء ثم يغدو عملاقاً لا طاقة لرده.

وأختم بأن أبي ـ حفظه الله ـ كان يمنعنا عندما كنا أطفالاً صغاراً من الألعاب بالأوراق (الشّدة) كي يغلق هذا الباب. وهذا أصل شرعي ومصدر تبعي من مصادر التشريع الإسلامي يسمى سد الذرائع ، وهو منع المباح الذي ربما يؤدي يوماً إلى محرَّم.

* * *

ساحر في ثوب عالم

السحر. . . . هذه الكلمة التي اختلف الناس في موقفهم منها بين مصدق ومنكر ، لكن من المسلَّمات في الشريعة الإسلامية وجود السحر وحقيقته ، وأنه مكفّر لصاحبه ، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . . . ﴾[1].

ولا يخفى على أحد أن الساحر يتقرب إلى الشياطين بالكفر وملازمة الجنابة وتدنيس المصحف وغير ذلك من الأعمال القذرة ، لذلك فهو يعد من الكبائر والموبقات السبع. قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله ، وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[2].

ومما يدعو للأسف أن المجتمع العربي ـ ولا سيما الفئات الشعبية منه ـ يؤمن بتأثير هؤلاء وقدراتهم الخارقة ، فنرى كثيراً من الناس يلجؤون إليهم ، فيرجون نفعهم ويخشون شرهم ، مع العلم أن رسول الله ﷺ قال لابن عباس حين أردفه وراءه: «يا غلام ، إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم

---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٣١٥) ، ح ٢٥٦٠.

أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

فمن آمن بأن هناك نافعاً أو ضاراً غير الله فقد أشرك ، ولكن الفهم المغلوط للدِّين سيطر على العقول ، فاستغل كثيرون جهالة الناس وبعدهم عن العقيدة القويمة لتحقيق مآربهم ومصالحهم . . . .

وكان منهم صاحبنا الذي تخفّى بلبوس العلماء وتحلى بزيهم ، فصعد المنابر ، وبدأ أغنيته الشيطانية ، وبقليل من الدجل وحركات الخفة جذب إليه الأبصار ، وسيطر على الأذهان والألباب.

لقد كان يقطن في منطقة زراعية في شمال شرقي سورية ، ويستثمر أمواله بزراعة القطن ، وهذه الزراعة ـ كما نعلم وتعلمون ـ تحتاج لأيدٍ عاملة كثيرة ، ولذلك بدأ صاحبنا يستقطب السُّذَّج والبسطاء مدعياً أنه يروض أرواحهم وينقيها من حطام الدنيا؛ كي ترتقي في درجات الصوفية ، فتُحلِّق في عالم من الروحانيات لا يعرف قدرها إلا من ذاقها.

وبنى من أجل ذلك أكواخاً تشبه الأكواخ الإفريقية ، فهي مرتفعة على أعمدة منصوبة في مزارعه ، وأسكن فيها الشباب الذين يسعون لتربية أنفسهم لتتحرر من أهوائها ، وعزلهم فيها عن الناس ، فأخضعهم للخلوة ، حتى يصل بهم إلى الجلوة ، وكلفهم بأوراد وعبادات ، وحصر طعامهم بالخبز اليابس والماء الحار. وهذه درجات ومسالك للارتقاء بالروح وتحرير النفس!

كان هؤلاء الشبان يمضون نهارهم تحت الشمس لرعاية مزارع مرشدهم ، ويحيون ليلهم بالوظائف الروحية التي كلفهم بها ، وبهذا تحولت أجسامهم إلى هياكل عظمية ذاب منها الشحم وتبعه اللحم حتى دق العظم. وكل ذلك في سبيل التحليق في دنيا السمو والروحانيات! ولكن لك أن تتخيل كم تغني هذه الخلوة جيب صاحبنا ، فهم يكدحون في مزارعه مجاناً ، وليس لهم إلا الخبز

---

(١) سنن الترمذي (٩/ ٥٦) ، ح ٢٤٤٠.

اليابس طعاماً والأرض فراشاً والسماء غطاءً.

وليزيد في استغلالهم وسلب إرادتهم كان يخطف عقولهم ببعض الحركات السحرية ، فكان يفرك كفيه ببعضهما فيخرج فستقاً وبندقاً ساخناً كأنه قد خرج من الفرن لتوّه ، وكان يخرج كمية كبيرة من الدخان من فمه دون أن يمسك في يده سيجارة أو أي شيء آخر ، وكل ذلك بحركات بهلوانية تشبه ما يقوم به أبطال السيرك ، أو لعله مما يقوم به بعض السحرة بتسخيرهم للشياطين.

لكن تلك الحركات خدعت أعين الناس وسلبت عقولهم ، فذاع صيته بينهم ، وبدؤوا يقصدونه من كل فج عميق ، فهذه زوجة تعاني العقم ، وذاك مريض يشكو إليه آلامه ، وتلك زوجة تشكو نفور زوجها وهجره فراشها. . . .

ولك أن تتخيل معي مدى قدرة هذا الشيطان على استغلال ظروف الناس بعد اطلاعه على أسرارهم وخفايا بيوتهم ، ولا سيما النساء منهم.

وأذكر أن صديقاً لي من دولة (مالي) تأثر بهذا الدجّال فانساق وراء دجله وشعوذته ، وترك الكلية الشرعية التي كان يدرس فيها ليلحق بمزارعه ، بعد أن أقنعه بأن الجامعة تمنحه علم الظاهر فحسب ، أما علوم الباطن فلا يجدها إلا في تلك الخلوات الموصلة للجلوات ، حيث يتدرج في سلّم الكرامات حتى يصل إلى الولاية.

وكثيرون هم الأفارقة الذين يستعذبون تلك الأجواء ، ذلك أن الطقوس الارتقائية التي تتضمن الضرب على الدف والطبل تشبه كثيراً من الحركات والطقوس التي انتشرت في القارة السوداء ، كما أن الموسيقا والرقص يجريان في أجسام الزنوج مع دمائهم.

وكم حاورت زميلي المالي ونصحته بالابتعاد عن ذلك الدجال والاهتمام بجامعته ، وكم خضت معه في شرح ما يسمى (بعلم الشريعة والطريقة والحقيقة) ، ولكن جهودي معه ضاعت عبثاً ، فقد اختار طريق الجهالة والتقليد الأعمى ، على الرغم من أنه كان متفوقاً في دراسته ويفوق زملاءه العرب ، ولطالما أدهش مدرسيه ، وكم كان فذاً ضليعاً في اللغتين العربية

والفرنسية ، بل وقد حفظ ألفية ابن مالك عن ظهر قلب ، وكانت جمهورية مالي قد ابتعثته للدراسة في دمشق؛ ليعود ويستلم منصباً مهماً فيها وينشر ما تعلمه في بلاد الإسلام!

لقد آثر صديقنا أن يكون أحد مريدي ذلك الدجال الذين كانوا يعتقدون بأن الله قد أطلع شيخهم على شيء من الغيب ، متناسين قول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[1] ، متجاهلين أن صاحبهم لم يكن رسولاً ليظهره الله على علم الغيب ، معرضين بعقولهم وأفئدتهم عن قول رسول الله ﷺ: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[2].

وبسبب استعمال ذلك الدجال للسحر والتمائم والعزائم وتسخير الشياطين ، أصبحت لديه سطوة على أتباعه الذين سلّموا أنفسهم له رغبة به حيناً ورهبة منه حيناً. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

وكان يتردد إلى دمشق أسبوعياً بعد أن اتخذ فيها منزلاً لممارسة شعوذته ، وكانت النسوة تدخلن إليه فيكشف عن بطونهن وصدورهن ، ويكتب على ظهورهن بعض التمائم والعزائم الشيطانية ، كما أنه اطلع على أسرار كثيرة ، فأخذ يستغل بعض النساء استغلالاً جنسياً ، فيجعل زوجة الرجل العقيم حاملاً ، فترجع إلى زوجها وفي أحشائها نطفة من الزنى ، أو يرسل بعضهن إلى كبار المتنفذين تقرباً منهم وكسباً لدعمهم . . .

ولأن صاحبنا المالي كان نقي الفطرة ويعتقد بولاية شيخه ، لم يستطع أن يقبل انكشاف العورات بهذا الشكل الفاضح ، وكان يطير صوابه عندما يرى ممارساته ، فبدأ يناقشه في مشروعية النظر إلى العورات والخلوة بالأجنبيات

---

(١) الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) صحيح مسلم (١١/ ٢٧٣) ، ح ٤١٣٧.

(٣) آل عمران: ١٧٥.

مسترشداً بالنصوص القرآنية والنبوية ، مما أثار غضب الدجال ورغبته بالانتقام من تلميذه الناصح .

ومضت أيام لم أعد أرى فيها صديقي المالي ، فسألت عنه ، فعلمت أن شيخه قد حاك له تهمة وزُجَّ به في السجن ، وأنه ما زال معتقلاً بسبب جريمة من صناعة ذلك الدجال ، فبذلت ما يبذل حتى أخرجته من سجنه ، ليتجه إلى الطائرة التي حملته إلى بلده حالاً فراراً من بطش ذلك الساحر الذي أصبح كالأخطبوط له أيدٍ وأرجل في كل مكان .

لقد كانت تجربة قاسية عاد بعدها المالي إلى بلده بعد أن أمضى عشر سنوات مغفلاً ضائعاً ، وخسر جامعته ، وهدر كثيراً من أغلى أيام شبابه .

وأما الشيخ الدجال فما زال يعيث في الأرض فساداً ويخدع كثيراً من الناس بكراماته المزعومة وخوارقه المشؤومة ، ولا سبيل لحماية المجتمع منه ومن أمثاله إلا بنشر الثقافة الإسلامية ، والتمسك بالعقيدة القيمة السليمة عن كل زيغ وإفراط .

ولكن المؤسف أن مجتمعنا الإسلامي اليوم مليء بمثل هؤلاء الدجاجلة الذين يعبثون بعقول العامة ، فهذه قصة زوجين يحاولان إسقاط جنينهما؛ لأن أحد الدجاجلة قد حكم بأن المرأة تعاني من المس ، وأن الشيطان الذي يلبسها يهدد بتشويه الجنين ، وفراراً من التشويه وخشية من فتوى ذلك الدجال أقدم الزوجان على قتل نفس بريئة . بل وقررا عدم الإنجاب بعد ذلك مطلقاً خشية من ذلك!

فعجباً كيف ينطلي مثل هذا الدجل على مؤمن يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] . وأنى للضعيف أن يؤثر بالمؤمنين؟

إن أقدار البشر جميعاً بيد الله وحده ، فهو النافع الضار ، وهو المعز المذل ، وليس لغيره من إنس أو جن سلطان على أحد أبداً. وقد ورد في كتب السنة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال له ﷺ: «جعلتني لله

---

(١) النساء: ٧٦.

عَدْلاً ، بل ما شاء اللهوحده»[1]. فالإيمان بأن الشيطان يضر وينفع شرك واضح ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2].

وإن الاستغاثة بغير الله مجلبة لنقمته تعالى ممحقة للدين ، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[3]. هذه الآية تتكلم عن عرب الجاهلية الذين كانوا يخشون الجن ، فإذا أرادوا المرور بوادٍ وقف قائد القافلة على مرتفع ونادى بأعلى صوته قائلاً: أعوذ بسيد هذا الوادي من أذى الجن. فكان ذلك يدفع الجن إلى إيذائهم وإرهاقهم.

إن الله عز وجل يغار أن يعوذ العبد بغيره ، ومن ذلك ما ورد أن موسى عليه السلام كان يمر في طريق ، فخرج عليه سفيه يستهزئ ويقول: أما وجد الله خيراً منك ليتخذه رسولاً؟! فكظم موسى عليه السلام غيظه ومضى ، وفي اليوم التالي كان ذلك أيضاً ، وفي اليوم الثالث مر موسى وهارون عليهما السلام ، فقال السفيه: أما وجد الله خيراً منك ومن أخيك لرسالته؟! فأوحى الله إلى موسى قائلاً: «إن رجع إلى ذلك سخرت لك الأرض والجبال». وفي اليوم التالي مر موسى عليه السلام للمرة الرابعة فلقي من ذلك السفيه ما لقيه من الاستهزاء ، فقال موسى عليه السلام: يا أرض ابلعيه. فغار الرجل في الأرض إلى ركبتيه ، فأخذ يستغيث: يا موسى... لا أعود ، يا موسى أرسلني. فقال عليه السلام: يا أرض خذيه. فغار الرجل إلى بطنه وهو يستغيث بموسى ، فتابع موسى: يا أرض خذيه. فغار الرجل ولم يبقَ على الأرض إلا رأسه ، وهو يقول: يا موسى سأموت الآن... لن أعود... أعاهدك... أغثني. فقال موسى: يا أرض ابلعيه. فغار الرجل ومات ، فأوحى الله إلى موسى قائلاً: «ياموسى ، ما أقسى قلبك! وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة واحدة لأغثته». ولعل سائلاً يسأل: لماذا لم يشأ الله إغاثة ذلك المستغيث؟ فيأتي الجواب: إن الله كتب على نفسه أن يذل من استغاث بعبد مثله.

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٤٦٢) ، ح ٢٤٣٠.

(٢) يوسف: ١٠٦.

(٣) الجن: ٦.

ومن قصص السحرة التي تروى في المملكة العربية السعودية أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أُخبرت بساحر في إحدى المناطق ، فأرسلت إليه أحد أعضائها ، فقال له: إن أبي وأمي في خصام وبغض ، وأظن أن أحداً قد حاك لهما سحراً ، وأنا على استعداد لدفع أي مبلغ لأعيد الحب والوئام بينهما.

يقول: فطلب مني الساحر إحضار أشياء عجيبة: فحم وزئبق ومسك... وغير ذلك ، فأتيته بما طلب ، فبدأ يردد بعض التمائم والكلام الغريب ، وكان قد وضع أمامه مبخرة ، فبدأت المبخرة تهتز وحدها ، ثم وقفت مائلة على زاوية ، فأدخل الساحر يده تحتها وأخرج شيئاً ، وقال لي: خذ. قلت: ما هذا؟ قال: هذا سيؤلف بين أبيك وأمك. يقول الرجل: فوضعت القيود في يده ، وقلت لـه: يا دجال! إن أبي مات منذ عشر سنوات ، فكيف تريد أن تؤلف بين قلبه وقلب أمي؟ فقال لي الساحر بالحرف الواحد: يا أخي لا تلومونا ، الشياطين لعبت فينا ، ونحن لعبنا بالناس!

وفي نهاية المطاف لا يسعني إلا أن أنصح شبابنا بأن لا يقعوا فريسة للدجالين والمشعوذين ، وأنصح النساء ـ خاصة ـ بأن لا يترددن على أمثال هؤلاء السحرة حماية لدينهن وأعراضهن وأموالهن ، وأن يحصنَّ أنفسهن كما أمر الله تعالى ، فالشيطان وأتباعه لا يتسلطون إلا على من آمن بهم وتردد إلى بيوتهم ، ولا سلطان لهم على المؤمن المصلي الذاكر ، وأنى للرصاصة أن تخترق جدراناً مصفحة مضادة للقنابل ، وهذه المصفحة هي الصلاة وذكر الله.

قال ﷺ: «اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أَخْذها بركة وتَرْكها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلَة»[1].

* * *

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٣١) ، ح ١٣٣٧. البطلة: السحرة.

وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى

في عصر من عصور البشرية يسمى «العصر الجاهلي» كانت الفكرة السائدة لدى الناس أن الأنثى نقمة لا بد من التهرب من إنجابها ، وكانوا يعللون ذلك بأسباب لا قيمة لها ، كما يقول أحد حكمائهم: إنها لا تردُّ غيلة ، ونصرها بكاء ، وبرُّها سرقة. ومعنى كلامه: إن الأنثى لا تشارك في غزو ولا تقاتل عدواً ولا تحمي ديارا ، وإذا أرادت نصر أبيها فسلاحها الوحيد هو البكاء ، وإذا رغبت في إكرام أهلها فليس لها سبيل إلا السرقة من بيت زوجها وماله.

لا شك أن كلام هذا الأعرابي تافه ، وأنه تولد من عقل حُشي ظلمة وعقداً ، ولكن ما يبرر كلامه أنه ينحدر من عصور سميت بالجاهلية ، فلا غرابة في خروج الجهل من مصدره ، ولكن الشيء الذي يدمي الفؤاد أن نسمع بمثل هذه الترهات في عصرنا هذا ، الذي غدت فيه المرأة رئيسة وزراء وطبيبة وعالمة ذرة ورائدة فضاء.

ويكفي أن تعلم أن الحسناوات الأمريكيات كن من أشد المقاتلين مهارة في الطيران بأعقد الطائرات الأمريكية الحديثة ، وقد أمطرن فحول رجال العراق بآلاف القنابل المدمرة. ولست أقول هذا مسروراً بإجرام الجيش الأمريكي وقتله الأبرياء الآمنين ، ولكن حسبك بما جرى ويجري جواباً شافياً لأصحاب الرؤوس والعقول العفنة.

إذاً ليست الأنوثة والذكورة مناط عز أو ذل ، وإنما العلم والحضارة والدأب هي مناط كل عز؛ فما الذي يخفض من شأن وزيرة استوت على كرسيها وقد اصطفَّ مئات الرجال ينتظرون أوامرها؟ وما الذي يرفع آلاف الكنّاسين وهم

يدورون بمكانسهم في الشوارع والأزقة؟!

وليت مجتمعنا يدرك ذلك ، فقد التقيت مرة بشيخ في الثمانين من عمره له ولد وبنت ، أما الولد فلم يكمل تعليمه الابتدائي ، فتراه يتعثر في قراءته كتلميذ حضانة كسول ، وأما الفتاة فقد تألقت في دراستها وصارت محامية مبدعة ، وفتحت لها الجامعة أبواب الدراسات العليا على مصاريعها ، ولكنها ظلت في نظر الأب أنثى! وكم تألمت حين دخلت المحامية على أبيها وهي تحمل كمية كبيرة من اللحم والطعام يزيد ثمنها عن آلاف الليرات براً بأبيها ، فتلقى الأب هديتها بفتور ، ثم دخل الأخ الأمي يحمل بين يديه بطيخة كبيرة الحجم لكن ثمنها لا يزيد على مئة ليرة ، فتلقاه الأب بقبول حسن ودعا له بالبركة والتوفيق ، ثم التفت إليّ قائلاً: إن هذه البطيخة لا يستطيع حملها إلا الرجال الفحول.

ولا يخفى على القارئ أن عقلية هذا الرجل هي العقلية السائدة في مجتمعنا ، هذا المجتمع الذي يرضع قيمه من تراث مليء بالأخطاء والعقد ، ولو أننا جعلنا التعاليم النبوية مشربنا الثقافي لما وصلنا إلى هذه الحالة.

فقد روي عن النبي ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى اللّه فيهن فله الجنة»[1].

وبعد هذه المقدمة أبدأ بسرد قصتنا التي جرت أحداثها في إحدى الدول العربية:

يروي طبيب في إحدى مشافي التوليد: في أحد الأيام جيء بامرأة في حالة مخاض ، وقمنا برعايتها والاهتمام بها ، وما لبثت أن وضعت ، فكان المولود أنثى ، وعندما أخبرت المرأة بجنس المولود أصيبت برعب شديد وانهارت باكية!

لكننا لم نلبث أن تبينا سبب ذلك الرعب؛ ذلك أننا عندما أخبرنا الأب أن المولود الجديد أنثى غضب غضباً شديداً ، وبدأ الشرر يتطاير من عينيه. فقيل

---

(١) سنن الترمذي (٧/ ١٥٠) ، ح ١٨٣٩.

له: هدئ من روعك ، إن هذا رزق ساقه الله إليك . . . . لكنه ما ازداد إلا غضباً وتمرداً.

فقيل له: لقد كان عليه السلام إذا ولدت له ابنة حملها وشمها وضمها وقال: «ريحانة أشمها ، وعلى الله رزقها». فأجاب صاحبنا: صدقني لو كنت نبياً لفعلت ذلك أيضاً!

عندها أيقن الطبيب صاحب المشفى أن الحوار مع هذا الرجل عقيم ، ثم التفت إلى الطفلة فإذا هي ذات شعر ذهبي ووجه أبيض يفيض براءة ، يخيل للناظر إليه أنه يرى المسيح عليه السلام ، ففاضت عاطفة الطبيب ، وقال له: اتركها عندي مع أطفالي. فأجاب الأب متبجحاً: خذها وفوقها عشرة آلاف ريال أيضاً! فقال الطبيب: أما المال فلا ، وأما الصغيرة فسآخذها.

أتراها كانت ساعة غضب؟ لا . . . لقد رمى الأب فلذة كبده ، وخرج من المشفى غير آسف على خسارته!

وعاشت الصغيرة في بيت الطبيب كإحدى بناته ، ونشأت لا تعرف أباً سواه ، وكان يحبها حباً جماً ، فتعلقت نفسه بها وكأنها تسير مع دمه في أوردته وعروقه.

ومرت الأيام . . . وكبرت الفتاة ، وتدرجت في مدرستها سنة وراء سنة ، وكانت ذات فكر متَّقد وطموح وثَّاب ، فتفوقت في دراستها ثم تابعت تعليمها في كلية الطب ، لتتخرج منها بعد سنوات وتصبح اليد اليمنى لأبيها في المشفى.

وتابعت الطبيبة مهنتها بكل مهارة وإخلاص في مشفى أبيها ، حتى كانت تلك الليلة . . . . حيث جيء برجل عجوز في حالة إسعاف وهو ينزف دماً ، وقد طعن عدة طعنات غاب على إثرها عن الوعي ودخل في غيبوبة. وتولَّت الطبيبة رعاية المريض الذي كان بأشد الحاجة للدم ، وظهر بعد بعض التحاليل أن زمرة دمه نادرة ، ولحكمة ما توافقت زمرة دم الطبيبة مع زمرة دم ذلك العجوز ، فبادرت إلى التبرع بدمها الحار الفتيّ ليضخ في جسده البارد فيبعث فيه الحياة من جديد.

وفي الصباح بدأ صاحب المشفى جولته الصباحية المعتادة على المرضى ، وإذ به يفاجأ برؤية ذلك العجوز. حقاً إن الدنيا لصغيرة... إنه ذلك الرجل الذي رمى ابنته منذ ثلاثين عاماً!

وتذكر العجوز فعلته ، وتذكر الطبيب الذي انهال عليه بالأسئلة: أأنت فلان؟ ما الذي فعل بك هذا؟... فتنهد العجوز تنهيدة أشبه ما تكون بعاصفة رملية حارة خرجت لتوها من فوهة بركان ، وسالت الدموع على وجنتيه المتعرجتين اللتين رسمت ريشة القهر ألواناً من الرعب عليهما ، وقال متألماً: لقد رزقني الله طفلاً ذكراً كما كنت أشتهي ، وسخرت نفسي ومالي تحت قدميه ، فلما شبَّ التحق بجماعة من الشباب المدمنين على القمار ، وبدأ يستنزفني مالياً وعصبياً.... ولما ضيّع حصيلة عمري وجهدي اقتحم عليّ البيت كسبع ضار يطالبني ببيع البيت ، فلما أبيت انهال عليّ ضرباً بالسكين ، وأنا الآن أمامك كما ترى!

فقال الطبيب: أتدري من الطبيبة التي أنقذت حياتك ووهبتك دمها؟ إنها تلك الطفلة التي ركلتها يوماً وهي قطعة لحم طرية غضة ، وهربت من عارها وتربيتها ، فهي اليوم كما ترى ، وأما ولدك الذكر الذي تمنيته وفضلته عليها فقد فعل بك ما تعلم! فهل لمست الآن عظم إجرامك وقسوة قلبك الذي تتبرأ الحجارة من قسوته وجبروته؟

إن مجتمعنا اليوم ما زال مليئاً بمثل هذه العقول العفنة ، وليت الحجاج بن يوسف الثقفي يبعث اليوم فينا ليقول: (إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها).

وليت سيف ذي الفقار يستأصل تلك الرؤوس التي حشيت صخراً وجهلاً؛ ليصطلح الإنسان مع إنسانيته وتمتلئ القلوب رحمة والصدور شفقة والبيوت عدلاً.

وليتني أستطيع ان أهب كل أب قاسي القلب شيئاً مما أشعر به حين أنكبُّ على جبين طفلتي لأقبلها ، فإذا بي أشم فيها عبيراً وعبقاً من أنهار الجنة.

* * *

فاضت روحه وهو يغني

إن من أشد الأمراض خطراً في زماننا وقوع كثير من الناس ـ كباراً وصغاراً ـ في الإدمان ، ولا أقصد الإدمان على المخدرات أو السجائر ، وإنما الإدمان على سماع الغناء ومشاهدة الحسناوات اللواتي يخطفن الأبصار ويسلبن الألباب بغنجهن وتمايلهن وإتقانهن فنون الإثارة والغواية ، فتراهن يظهرن على الشاشات متمددات على الأسِرَّة وهن شبه عاريات ، مع كثير من الآهات والإيماءات الخبيثة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل تجاوزه لشباب خرجوا علينا يتراقصون تراقص النساء ، ويتقلبون على الأسرة أيضاً! ففي الماضي كانت المرأة هي من تقوم بدور الغواية والإثارة ، ولكن في زماننا غدا أنصاف الرجال يشاركونها في ذلك.

فرحم الله عبد الله بن عمر بن الخطاب عندما مر ببادية فسمع زمارة راعٍ ، فوضع أصابعه في أذنيه حتى جاوزه.

ورحم الله عمر بن عبد العزيز الذي قال لأبنائه: أحذركم الغناء ، أحذركم الغناء ، أحذركم الغناء! فما استمع عبد إليه إلا أنساه الله القرآن.

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يسأله رجل: ابن عباس ، أرأيت الغناء ، أحلال هو أم حرام؟

فقال ابن عباس: أرأيت الحق والباطل إذا جاءا يوم القيامة ، فأين يكون الغناء؟

فقال الرجل: يكون مع الباطل.

فقال ابن عباس: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ اذهب فقد أفتيت نفسك.

إن هذا الرجل يسأل عن غناء الأعرابي في البوادي، الذي يخلو عادةً من المعازف والتصوير واللباس العاري والرقصات الفاتنة والحركات الماجنة، فما بالك بأغاني اليوم؟

أما أبو بكر رضي الله عنه فكان يسمي الغناء: مزمار الشيطان.

وسأل رجل الإمام مالكاً عن الغناء، فقال: لا يفعله عندنا إلا الفساق.

وسئل الإمام أحمد عن الغناء، فقال: الغناء يُنبت النفاق في القلب، ولا يعجبني.

والشافعي رضي الله عنه سماه: ديسائة، وأبو حنيفة أفتى بتحريمه..... فماذا بعد ذلك؟!

ولكن أقول: لابد من التفريق بين الغناء الفاحش الذي يهيج المشاعر الغريزية، وبين الإنشاد الراقي الذي يسمو بالإحساس النفسي والمشاعر الإيجابية. فعندما أفتى أئمتنا بحرمة الغناء إنما كانوا يقصدون الغناء الشائع في عصرهم ومجالس المجون، إذ كان لديهم مجالس أشبه بالحانات والملاهي، يتجمع فيها الرجال الفاسقون والمومسات، يتبادلون الخمر، ويضربون بالعود، وتقوم العاهرات بالغناء والرقص، فإذا طاف السكر في رؤوسهم علا بعضهم بعضاً وجرت الفواحش، ولم يكن في ذلك الزمان معنى للغناء إلا هذا، وبذلك يتضح مقصد الأئمة في الأحكام السابقة، أما الإنشاد الديني والوطني والاجتماعي وأمثاله فقد كان مباحاً، ومازال على حكم الإباحة.

ومن أدلة ذلك إقرار النبي صلى الله عليه وسلم للجواري في إنشادهن وضربهن بالدف حين استقباله في المدينة المنورة، وإنشاد الصحابة أثناء حفر الخندق، ومشاركة المصطفى ﷺ معهم بقوله: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة»[1]. بالإضافة إلى إذنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح البخاري (١٠/١١٩)، ح ٢٧٤١.

للنساء بالغناء في الأفراح والضرب على الدف.

ولكن صاحبنا كان مغنياً من الطراز الأول ، فقد اعتاد أجواء السكر والتفلّت ، وكان يحيي السهرات الحمراء في الملاهي. . . وفي إحدى الليالي تعرض لحادث سير خطر أثناء سفره إلى اللاذقية لإحياء حفلة غنائية ، حيث قذفت به السيارة أرضاً ، وأصيب بجراح عميقة بدأت تنزف بغزارة. . .

وتم استدعاء الإسعاف سريعاً ، وحضر رجال الشرطة لاستبيان أسباب الحادث ، وتم حمل صاحبنا إلى سيارة الإسعاف برفقة بعض رجال الشرطة. وفي الطريق إلى المشفى سمع الضابط ذلك الجريح يصدر أصواتاً غريبة وكأنه على وشك الموت ، فقام بتلقينه الشهادة قائلاً: قل: لا إله إلا الله. ولكنه لما أصغى السمع أكثر استطاع فهم ما كان الجريح يقوله؛ لقد كان يغني: سمراء يا حلم الطفولة.

فقال له الضابط: ويحك ، قل: لا إله إلا الله ، فأنت تحتضر.

فما زاد صاحبنا عن ترديده: سمراء يا حلم الطفولة.

يقول الضابط: فأصابتني الدهشة ، وما زلت أطالبه بنطق الشهادة ، وهو معرض عن ذلك ، حتى التفت إليّ وقال: فات الأوان ، لقد سلكت في سقر. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ، وفاضت روحه.

ولعل الغرابة في القصة تكمن في عجز لسان ذلك المغني عن النطق بشهادة التوحيد ، ثم بمقولة المغني: سلكت في سقر.

ومما لا شك فيه أن صاحبنا كان بعيداً كل البعد عن مفردات القرآن الكريم وعن أوراد المسلم ، فأنى له أن يتلفظ بهذه الجملة؟!

بل مما لا شك فيه أيضاً أنه قد رأى مقعده من النار ، وأيقن أنه من ساكني سقر.

قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1].

فمن كانت الدنيا ولهوها وغناؤها أكبر همه مات على ذلك وحشر عليه ، إذ ليس سهلاً أو بسيطاً أن يتلفظ الإنسان أثناء احتضاره بالشهادة؛ لأن العقل يطيش عندئذٍ ، ولا ينطق اللسان إلا بما عمل صاحبه أثناء حياته ، فيعطل تفكيره ويفقد إرادته.

لذلك كان ﷺ يعلمنا أن ندعو: اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والمراد من الحديث: الثبات بقول الحق أثناء الحياة ، والنطق بالشهادة أثناء الاحتضار ، والثبات عند سؤال الملكين في القبر.

وكلنا نعلم أن الغناء الفاحش يحرك النفوس إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصف كل مليحة ومليح ، فهو والخمر رضيعا لبان ، وهما في القبائح فرسا رهان ، فمن سمعه قلَّ حياؤه ، وفرح به شيطانه ، واشتكى إلى الله إيمانه ، وثقل عليه قرآنه ، وتراه يميل برأسه ويهز بمنكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويصفق بيديه ، فتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يصرخ كالمجانين.

ورحم الله الخليفة الأموي يزيد بن الوليد حيث جمع أهله وقال: (يا بني أمية ، إياكم والغناء ، فإنه يذهب الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، إن الغناء داعية الزنى)[2].

وروى خالد بن عبد الرحمن قال: كنا في عسكر سليمان بن عبد الملك ، فسمع غناءً من الليل. فأرسل إليهم بكرة ، فجيء بهم فقال: إن الفرس لتصهل فيسودق له الرمكة[3] ، وإن الفحل ليخطر فتضبع له الناقة ، وإن التيس ليثب

---

(١) المدثر: ٢٦ ـ ٣٠.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١١/١٠٦) ، ح ٤٨٩٨.

(٣) تستعد الأنثى للوطء.

فتستحرم به العنز ، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق إليه المرأة. ثم قال: اخصوهم[1]. فقال عمر بن عبد العزيز: (هذا مثلة ، ولا يحل) ، فخلى سبيلهم[2].

وأذكر قصة حدثت منذ سنة في إحدى الدول العربية:

يقول أحد العاملين في أمن الطرق: كنت أعمل في قوات الأمن ومراقبة السير ، وقد اعتدت مشاهدة الحوادث والمصابين ، وكانت حوادث السير لا تترك أثراً في نفسي؛ لكثرة ما شاهدت منها ، إلى أن كان ذلك اليوم حيث كنت في دورية أراقب الطريق مع أحد الزملاء ، وفجأة سمعنا صوت ارتطام شديد ، فأسرعنا إلى جهة صدور الصوت ، وإذا بسيارتين قد ارتطمتا ببعضهما بعضاً بشكلٍ مروع ، فأسرعنا لإنقاذ المصابين ، وكان في السيارة الأولى رجلان ، فأخرجناهما من السيارة والدماء تسيل منهما ، وهما يصيحان ويتأوهان ، فوضعناهما على الأرض ، وأسرعنا لإخراج سائق السيارة الثانية الذي كان قد فارق الحياة.

عدنا للرجلين المصابين ، فإذا هما في حالة احتضار ، فهبَّ زميلي يلقنهما الشهادة ، فاقترب منهما يقول: قولا: لا إله إلا الله. وهما يثنان ، وصاحبي يردد: لا إله إلا الله. وهما لا يستجيبان... حتى إذا بدأ بهما النزع واشتد شهيقهما بدأا يرددان كلمات من بعض الأغاني.

يقول المنقذ: لم أستطع احتمال الموقف ، فالشابان يحتضران ، وصاحبي يردد: لا إله إلا الله ، ويرجوهما أن يقولاها... ولكن!

بدأ صوت الشابين ينخفض شيئاً فشيئاً ، ثم فارقا الحياة.

كان مشهداً قاسياً تعجز الكلمات عن التعبير عنه ، وبصمت حملنا الأموات الثلاثة إلى المشفى عاجزين عن النطق بأي كلمة.

والآن كلما أحببت أن أسمع أغنية مثلت في مخيلتي صورة الشابين ، وهما

---

(١) الخصاء: استئصال العضو الذكري.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١١/ ١٠٤) ، ح ٤٨٩٦.

غير قادرين على النطق بالشهادة ويودعان الدنيا بألحان الشيطان.

وفي نهاية المطاف أقول: إن الغناء الهابط مدعاة لجرح المروءة وبوابة إلى الزنى، والمصيبة الأعظم أن يتغلغل في كيان المرء فتتشربه كل خلية في جسده ونفسه، فيعجز عن النطق بالشهادتين، فيكتب له سوء الخاتمة.

وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصة من قبل نفسه»[1]، أي: يعتقد بها قلبه ويؤمن بها عقله ويلفظها عند موته. ولن يلفظها عند احتضاره إلا إذا صلحت سيرته. والله أعلم.

* * *

(١) صحيح البخاري (١٨/ ٤٥)، ح ٨٥٠٣.

البيت الدمشقي بين الماضي والحاضر

لقد اختلفت الأزمان ، واختلفت البيوت وسكانها ، وتبدلت القيم ، والمؤلم أن التغيير كان للأسوأ ولم يكن للأفضل ، وهذا من الأمور الثابتة في السنة النبوية ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يفون. . . .»[1].

فما من يومٍ إلاَّ ويكون خيراً من الذي يليه ، فهذه الشام القديمة منذ سبعين عاماً كانت على صورة تشبه الأحلام ، ثم. . . .

ها هو الشيخ صاحب الدار الذي بلغ الثمانين من عمره يسمع الأذان ، فيخرج ملبياً نداء الله ، وترى البيت في حضرته في هدوءٍ وسكينةٍ ، فإذا سمع أولاده وأحفاده انغلاق الباب أخذوا يتراكضون ويصفقون متطايرين من الفرح وكأنهم أفلتوا من سجن كان ضاغطاً على صدورهم ، وتراهم يتحلّقون حول البحرة التي تتوسط صحن الدار ، ويتراشقون بالمياه ، وها هم يقذفون بأحدهم داخل الماء ، فتسرع أمه لإخراجه وتغيير ملابسه بعد تجفيف جسده خشيةً عليه من المرض ، وسرعان ما يتفلّت الصبي من بين ذراعيها؛ ليثأر من إخوانه وأبناء عمه. . . لقد كانوا في صمتٍ طويلٍ وسكينةٍ حرصاً على راحة الشيخ وهيبةً له وإجلالاً لقدره ، فلما حانت الفرصة بالانفكاك أخذوا يطيرون لعباً ونشاطاً ، ولابـد أن يعودوا لسكينتهم عند قدوم الشيخ.

أما المسنُّ في أيامنا هذه فتراه قد أصيب بالصداع والاكتئاب نتيجة تقافز

---

(١) صحيح البخاري (١١/ ٤٨١) ، ح٣٣٧٧.

أحفاده على سريره ، وصراخهم الذي لا ينتهي ، وصخبهم وضجيجهم طوال النهار ، حتى يؤويهم الفراش بعد الحادية عشرة ليلاً بعد جدالٍ طويلٍ لإقناعهم بلزوم النوم والرقاد. فشيخ الماضي كان يتمتع بهيبةٍ وسطوة ، وشيخ الحاضر يعاني من جرأةٍ عليه واستخفاف بقدره ، فشتان بين الأمس واليوم.

وترى ما حال الشيخ بعد خمسين عاماً؟ لا بد أنه سيُحمل خارج بيته لإحدى دور المسنين؛ لأن منظره في البيت لا يستعذبه الأحفاد! . . .

وإليك صورة دمشقي أخرى. . . وهي الدار الدمشقية القديمة التي إذا تأملتها وجدت أرضها رخامية أشبه بالمرايا ، ومنها ما يكون من المرمر ، وذلك في بيوت الأثرياء لاهتمامهم بنظافتها ، إذ لا بد أن تُنظَّف بالماء وتُلمَّع بالإسفنج كل صباح. وستجد الأولاد يتراكضون بين غرف البيت الواسعة المنتشرة شرقاً وغرباً ، فقلَّ أن تجد داراً إلا وتحوي سبع غرفٍ أو أكثر.

ولعلِّي إذا حدثتك عن ورود الشام وأشجارها تعتقد بأنني شاعرٌ أتعمد المبالغة في الوصف! إن عبق الياسمين يملأ البيوت والأحياء ، فيملأ صدرك غبطةً وسروراً وكأنك تتنسَّم من عبير الجنان ، وأما أشجار الكباد والنارنج والليمون فروائحها يغيب لها الوجدان.

أما بيوتنا اليوم فهي كعلب الكبريت الإسمنتية التي غزت مدننا وشامنا ، فتملأ الصدر ضيقاً وتصيب الأمل بالعقم. . . فغرف ضيقة ، وشرفات مقزّمة ، وتزاحم قاتل ، وترى البيوت يركب بعضها بعضاً ، مما ينعكس سلباً على نفوس سكانها ، ويسبّب لهم توتراً عصبياً ومشكلات نفسية وشجاراً وصراخاً ونقمة وسخطاً. أما رائحة الياسمين والنارنج فقد استبدلت بنوافذ مفتوحة على المناور ، فتأتيك من كل مرحاضٍ نسمة ، ومن كل مطبخٍ هبّةٌ من البخارِ المليء بالغبار.

أما إذا سَألْتَ عن علاقة الزوجة بزوجها قديماً فبإمكانك أن تصفها بما ورد عن رسول الله ﷺ : «إذا صلَّتِ المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وأطاعت

زوجها ، وحفظت فرجها ، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»[1].

فقد كان للشيخ طقوسٌ مقدّسة تراعيها زوجته العجوز بدقّةٍ متناهية ، فللشيخ حذاء يلبسه في البيت منذ سنوات ، وقد وضعه في مكان خاص لم يتغير منذ ستين عاماً ، ولا يجرؤ أحد من الصغار أو الكبار أن يغير مكانه ، والويل والثبور إذا دخل الشيخ فلم يجد حذاءه في مكانه المحدّد. أما موعد طعامه فكان مقدّساً أيضاً ، سواءً في الصباح أو الغداء أو العشاء ، فلا بُدّ أن يرجع الشيخ من صلاة الفجر ويجد المائدة قد فُرشت بالبيض واللبن المكور وأصناف المكدوس ، بالإضافة إلى مربّى الكرز والفريز والإسفرجل والمشمش وأنواع الجبن ، المالح منها والحلو والمشلل. . . وحدث ولا حرج عن أصناف يجب أن تمتلئ بها المائدة ، وتتحلّق الأسرة حولها من كبيرها حتى صغيرها دون أن يتخلف طفلٌ واحد. وأما ثياب الزوج ومناديله فإنها تطوى بالطريقة التي علمها لزوجته أول أيام زواجهم ، بعد أن ذكر لها ما يحب وما يكره من الصفات.

وإذا ما قارنْتَ ذلك كله بواقع اليوم فستجد أن صوت الزوجة يرتفع بالصياح ، وربما بالشتائم في بعض الحالات على زوجها ، فالاحترام غدا مفقوداً. وأما حذاؤه الذي اعتاد أن يضعه في مكان خاص ، فلربما التمسه فلم يجده ، ولعله يجده تحت وسادته! ومن الطبيعي أيضاً أن تتصرف الزوجة ببعض ثياب زوجها فترميها دون مشاورته أو الرجوع إليه. وأما مواعيد الطعام. . . فغالباً ما ينسلُّ الرجل صباحاً من فراشه على رؤوس أصابعه؛ لكيلا يزعج زوجته ، فيصنع لنفسه القهوة ، ثم يرتدي ملابسه ، ويغلق الباب برفقٍ وهو يغادر البيت حتى لا تستيقظ فتغضب فتُحيل نهاره وليله إلى جحيم من الصراخ. وربما عاد إلى منزله مساءً فلا يجد طعاماً بعد أن أمضى نهاره في عملٍ شاق ، وهو بأمسِّ الحاجة للراحة والهدوء ، فإذا عاتبها على تقصيرها شكت له التعب والوهن وعسر الأبناء وعنادهم ، وقالت له بالفم المليء: ألا يحق لي أن

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٨٥) ، ح ١٥٧٣.

أستريح يوماً من همكم وطبخكم ونفخكم؟ أسرع إلى السوق فقم بواجبك كرجل محترم وآتنا بطعام جاهز. وعند ذلك لا بُدّ له أن يهرول ليصل إلى السوق ممتثلاً أوامرها ، فإن قولها يجب ألا ينزل الأرض أبداً.

أما إذا جرت مناقشة بين الزوجين فستجد صوتها يعلو صوته ، وربما ارتفعت وتيرة انفعالها فبدأت بتحطيم أواني المنزل ، ضاربةً بعرض الحائط الجهد والعمل الذي بُذل في تحصيل أثمانها.

ويجب أن تعلم أن الزوجة العصرية لا تهدر وقتها الثمين في صناعة بعض الأطعمة التقليدية كالمكدوس والمربيات ، بل يجب على الزوج أن يشتريها من السوق بالرغم من ارتفاع أثمانها ورداءة صناعتها وتلوثها! أما إذا طالبْتَ زوجتك بما يسمى (الفض: وهو وضع أقمشة للرضيع ليقضي بها حاجته ، ثم إعادة تنظيفها واستعمالها ثانية كما كانت أمهاتنا تصنع) فستكون زوجاً من العصر الحجري؛ لأنها فتاة العصر أوفر كرامةً من جدتها ، بل إن عليك أن تشتري (الحفاضات) الجاهزة ولو كلفك ذلك أربعة آلاف شهرياً ، وكان راتبك لا يتجاوز عشرة آلاف. فبنت البيك وسليلة الباشا لا ترضى بمهانة هذا العمل.

وأما غرفة الزوج قديماً فكانت رحبة ذات عتبة مستطيلة تمتد على عرض الغرفة التي ترتفع عن الأرض أكثر من ذراع كسائر غرف الدور الشامية ، وتغطيها (تخشيبة) مُدَّ عليها السجّاد وفُرشت في جوانبها الوسائد والمساند والمفارش ، وقامت في صدرها دكّة أعلى ترتفع عن التخشيبة مقدار ما تهبط عنها العتبة. وكان مجلس الشيخ في يمين الغرفة يستند إلى الشباك المطل على رحبة الدار ، وقد صفّ إلى جانبه علبه وأدواته ، منها علبة النشوق التي يأخذ منها بيده ما ينشقه من التبغ المدقوق ، وعن يساره خزانة صغيرة من خشب السنديان المتين لا يدري أحد حقيقة ما فيها من التحف والعجائب ، فهي مستودع ثروة الشيخ وتحفه ، ومما علم أهل الدار عنها أن فيها علباً صغيرةً ، في كل علبةٍ نوع من أنواع النقد من النحاسات وأنصاف المتاليك والمجيديات وأجزائها والليرات العثمانية والإنكليزية والفرنسية ، فإذا أصبح أخذ مصروف

يومه الذي قدره له يوم وضع (ميزانية الشهر) ، ثم إذا عاد نظر إلى ما فضَل معه فضم كل جنسٍ إلى جنسه .

ولعلك تلاحظ الترتيب الدقيق في حياة الشيخ ، الذي فقدناه في أيامنا هذه ، فإنه يقدر نفقته طوال الشهر ، ويقسمها على ثلاثين يوماً ، ويخرج في كل يومٍ قدراً معلوماً ، وبذلك يتجنب الإسراف والتقصير بآن واحد ، ولا يقع بالعجز في منتصف الشهر .

ومن المؤلم أن كثيراً من الرجال اليوم لا يحسنون تقسيم دخلهم على أيام الشهر ، فيقعون في الإفلاس من الأسبوع الأول . وللإنصاف لا بد أن نقول : إن بساطة العيش ووفور القناعة في ما مضى كانا مؤثرين في ذلك ، وهذا ما نفتقده في هذه الأجيال المعاصرة ، بالإضافة إلى أن كثيراً من الأزواج يمنحون المرأة مسؤولية النفقة ، فإن كانت سفيهة أمضى بقيّة شهره كفافاً ، وإن كانت حكيمة عاش عيشة هنيئة ، وأراح رأسه وقلبه من ذلك الهم .

لقد كان الشيخ قديماً وافر الصحة ، شديد القوة ، متين البنيان ، مستقيم الظهر ، إذا مال على حائطٍ هدَّه ، مع أنه قد تجاوز الثمانين من عمره ، ولعل هذه القوة تعود إلى صلاحه وعفافه أيام شبابه ، فكما أحاط شبابه بالعفاف والتقى حفظ الله له شيخوخته وعافيته . لقد كان يستيقظ في وقت السحر على أصوات المؤذن الذي يترنّم بتسابيح من شأنها أن تذيب القلب خشوعاً ، ولا سيما إذا صدرت من حنجرةٍ ساحرةٍ تفيض رقّةً وصدقاً ، فتسمعه يكبّر ويتلفظ بالشهادة قائلاً : لا إله إلا الله . . . خارجة من أعماقه ، تفيض رسوخاً كرسوخ الجبال ، ثم يخلع ملابسه ويغتسل في بحرته ، ولا يترك ذلك صيفاً ولا شتاءً ، وكم مرة كسر طبقة الجليد التي تجلل البحرة شتاءً واغتسل بمائها . فمتعه الله ببركة ذلك بصحةٍ وقوّةٍ لا مثيلَ لهما في أيامنا هذه . ثم تراه يصلي بضع ركعات ويتوجّه إلى المسجد ملبياً النداء ، فيقف في مكانه الثابت الذي لم يغادره منذ ستين عاماً خلف الإمام مباشرةً ، وذلك استجابةً لقوله ﷺ : «لو يعلم الناس

ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلاّ أن يستهموا عليه لاستهموا»[1].

أما إذا قارنت حالنا اليوم بحاله ، فستجد أنّ الأجساد قد ضعفت وغزاها السّمن ، فانتفخت البطون ، وتدلّت الكروش ، وتخلخلت الركب ، وغزا الرؤوسَ الصلعُ ، وتساقطت كثير من الأسنان ، حتى إن أصغرنا ليعاني من بعض الأوجاع والآلام. وقد استبدلنا تذكير المؤذنين بأصوات المطربات والمطربين ، المخنثين منهم وغير المخنثين ، من أمثال مايكل جاكسون وغيره ، فلم نعد نشعر بعذوبة تسابيح المآذن ، بل غدت موسيقى الروك قبلتنا ، حتى إننا لا نحتاج للاستيقاظ فجراً؛ لأننا لم ننم حتى الفجر أصلاً ، فلنا في المسلسلات ـ العربية منها والمترجمة ـ شاغلٌ. وأما المساجد فتركناها للصحابة والتابعين ، فلا يكاد يمتلئ الصف الأول ، ولا سيما في صلاة الفجر. وقد سُئل حبرٌ من أحبار اليهود مرة: متى تتحرر فلسطين؟ فأجاب: عندما تجد أن المصلين في صلاة الفجر قد ازدحموا ازدحامهم في صلاة الجمعة. وسبحان الله! صدق وهو كذوب.

لقد كان الشيخ ينزل بعد الفطور إلى متجره وقد سبقه أكبر أولاده في فتحه ، وكان هذا المتجر مفروشاً بالسجاد الفاخر ، وله أريكة في صدره يجلس عليها ، فإذا فترت الحركة في السوق أخذ يقرأ في مصحفه أو في دلائل الخيرات. وإذا ما دخل متجره نسوةٌ وكشفت إحداهن عن وجهها صاح بها صيحةً ارتعد لها السوق ، وأمرها أن تلتزم الحشمة والفضيلة. فكانت النسوة المتفلتات يخشين مجرد المرور أمام متجره ، بل ـ ولشدة هيبته ـ يتراهن شباب السوق أيهم يتجرأ أن يطرق عليه الباب. أما تجارنا اليوم ـ شيباً وشباباً ، بل والشيب يتقدمون غيرهم ـ فتراهم يجلسون على أبواب متاجرهم ، وقد حملقوا عيونهم وأطلقوا لها العنان ، وكأنهم أقسموا بأغلظ الأيامين أن لا تفوتهم فتاة أو امرأةٌ تمر في السوق إلا وقد صوروها بأشعة تخترق الثياب لترى ما وراءها ، فتراهم يدرسون كلّ عابرةٍ للسوق دراسة الخاطب الوقح ، ويبدأ التحرّش

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٤٢٤) ، ح ٦٦١.

بالغمز واللمز والكلام الذي يُحمّر الوجوه ، وأما الفتاة التي تبدي شيئاً من ساقيها وصدرها فتراها تحظى بكثيرٍ من الاهتمام واللباقة في المعاملة ، وكلما زادت زادوا. وما أكثر عارضات الأزياء اللواتي يتجولن بين المحلاّت ، وقد أطلقن العنان للغواية ، ويتكسّرن في مشيتهنّ ، ويتمايلن ويتضاحكن مع الرجال وكأنهن مومسات يدعون الزبائن للفجور.

وضاعت الهيبة.... وكيف يبقى لرجلٍ هيبةٌ وقد تصاغر أمام ساقين عاريتين؟

ونسي الناس قول الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[1].

ونَسِيْنَ أن الله عز وجل نهى عن الخضوع والليونة في القول والصوت؛ لأنّ ذلك يُجرّئ من كان في قلبه مرض ، ولا يخفى أن أول الغيث قطرة ، وأول الزنى نظرة. والعجيب أن كثيراً من الباعة يعتقدون أن مداعبة زبائنهم من النساء مجلبةٌ للبيع ، ونسوا أنها مُمحِقةٌ للدِّين ، وأن صدق التاجر وحسن معاملته واعتدال سعره هي العوامل الجالبة لكثرة البيع لا الملاطفة والعبث.

هذا... ولم يكن في دمشق رجلٌ يمشي مع زوجته في الطريق مجاوراً لها؛ لأن نخوته وغيرته تدفعانه لأن يمشي قبلها بعدة أمتار ، بل ولا يسمح للصغير الذي يماشي أمه أن يرافقه في الطريق؛ كي لا يُحدّد الناظر زوجته ، بل لا يماشي امرأته في الطريق إلاّ فاسقٌ قد هُدرت نخوته. ولا شكّ أن هذا السلوك فيه من الإجحاف والتشديد ما فيه ، غير أننا ذكرناه لنقارن بين رجال الأمس وذكور اليوم (ولا أستسيغ وصفهم بالرجال) الذين يماشي أحدهم زوجته أو أخته وقد أبدت أغلب جسدها ، فالبطن مكشوف ، والظهر مكشوف ، والأقدام بادية فوق الركبة بشبرين ، والمرأة تسير متكسرةً وقد تسلطت عليها أعين الرجال بالشهوة الواضحة التي تلمع بها عيونهم ، والكل

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

يتمنى أن تكون في حوزته ، والزوج يبتسم متفاخراً بشبق الآخرين بأهله ، والعياذ بالله .

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث»[1] .

فهذا هو الديّوث الذي لا يغارُ على أهله ونسائه ، ويقرّ الخبث والفحش فيهم . ولعلك إذا سألت عن أعظم العوامل التي تؤدي إلى الزنى ، أجيبك بطمأنينة كاملة : إنه خُلق الديّوث في الزوج والأخ والأب ، ولعلك إذا صافحت امرأته وتلفظت بكلماتٍ من الغزل المخجل شكرك الزوج وشعر بالغبطة ووصفك قائلاً : (كلك ذوق)!

لقد كانت بيوت أهل الشام خاليةً من النوافذ المطلّة على الطريق ، فهي أشبه بمستودعات القمح ، لكنها جنات من الداخل . وإذا أسرف أحدهم في فتح نافذة على جاره فسرعان ما يتسارع أعضاء الحي وكباره في أمره بإغلاقها . أما نوافذ البيوت وشرفاتها اليوم ، فحدث ولا حرج . . .

أذكر أن رجلاً جاء إليّ يخبرني بأنّ شرفة جاره ملاصقةٌ لشرفته ، وفي أحد الأيام خرج إلى شرفته ، فإذا بابنته قد أظهرت صدرها والشاب في الشرفة الملاصقة يعبث به! فما كان من الأب إلا أن صفعها ومضى . ووالله كان هو الأحق بالصفع ، فلطالما أباح لها الثياب الفاضحة على الشواطئ ، وكان ينظر إليها راضياً ، فالمفرّط أولى بالضرر كما تقول القاعدة الفقهية .

فرحم الله أيام البيوت الدمشقية القديمة ، رحمها بسكانها وبقيمها وبعماراتها أيضاً . وأما نحن فقد حقّ فينا قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : «يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر»[2] .

وفي البيت الدمشقي أمس . . . . دخل الشيخ يوماً إلى أهله ، فقامت العجوز متثاقلةً لتقبّل يده ، فلما لامست أناملها يده شعر باشتعالها حرارةً ، إنها

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سنن الترمذي (٨/ ٢١٥) ، ح ٢١٨٦ .

تعاني من الحمّى ، فخرج حالاً متسارع الخطا لا يشعر بنفسه ، ثمّ جاء ومعه طبيب ، فصاح في باحة الدار: افتحوا الطريق. فاختبأت النساء خلف الأبواب يتلصصن من شقوقها كعادتهن ، فإذا بالطبيب يقف جانباً ، والشيخ يأمر زوجته أن ترتدي ملاءتها فلا يُرى منها شيء ، ثمّ أدخل الشيخُ الطبيبَ فدسّ نبضها ورأى لسانها فقط ثم خرج. وكان هذا فحصاً محرجاً للشيخ يملأ وجهه حمرة ، ولعلك ترى ما انتشر في أيامنا هذه من الطب النسائي الذي يمارسه أطباء ذكور اليوم ، فيرى ويغوص ويجس بيده أكثر المناطق حرجاً في جسد المرأة ، ولعل ذلك الفحص لو عُرض على دمشقي قديم لاختار الموت على القبول به.

كما أن من المعلوم شرعاً أنّ كشف العورة للطبيب لا يُباح إلا عند الضرورة القصوى ، وهي عدم وجود طبيبات متخصصات. لقد أخبرني صديقي مستغرباً متعجباً بأنه دخل يوماً إلى عيادةٍ نسائية لطبيب ، فوجد النساء في غرفة الانتظار متلفحات بجلابيبهن ، وقد غطين وجوههن ، فقال في نفسه: كيف تبيح هذه المتلفحة لنفسها أن تنكشف عند طبيب ذكر وفي أخص المناطق المحرجة؟ لقد غدت للناس فلسفة دينية واجتماعية تصيب المتأمل فيها بالجنون.

وتفاقم مرض العجوز ، وبدأت بالاحتضار ، وغطت غطّةً ، فظنوها قد قضت ، ثم فتحت عينيها توصيهم بالشيخ قائلةً: رتبوا له ثيابه كما كنت أفعل ، وإياكم أن تقصروا في مواعيد طعامه وسباته ، لقد أعددت له المكدوس الذي يحبه ، إياكم أن لا تضعوه عند الفطور والعشاء... ثم فاضت روحها. لقد كان همّ هذه المخلصة رضى زوجها طوال ستين عاماً من الزواج ، بل وحتى آخر لحظات النبض. وبعد رحيلها نُكب الشيخ وتهاوى بنيانه الشامخ ، فانحنى ظهره ، ووهنت ركبتاه ، وملكته الرجفة ، وظهر عليه العمر والكبر ، ولم يعد يهتمُّ بشيء ، فانكسر نظامه الذي اعتاده طوال حياته.

لقد فقد أنيسه ووليفه وشريكه ، فلم يلبث إلاّ أشهراً حتى لحق بزوجته ، وبذلك انطوت قصة أسرة دمشقية عاشت في الطهر وماتت في الفضيلة...

ولعلّك تعلم أن الرجل فينا اليوم إذا ابتلي بموت زوجته فسرعان ما ينفض يديه من غبار دفنها باحثاً عن زوجة أخرى. لقد عرفتُ كثيراً من الرجال الذين

ماتت زوجاتهم ، وما زالوا يبحثون عن زوجات أخرى وقد تجاوزت أعمارهم الثمانين ، حقاً لقد غدا الإخلاص نادراً والوفاء عملةً صعبة ، ولعل الذاكرة تموت أو تحتضر.

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام شديد الوفاء لأمنا خديجة رضي الله عنها ، فكان يذكرها دوماً ، حتى أثار ذلك غيرة أمنا عائشة رضي الله عنها ، فقالت له يوماً: ما أكثر ما تذكر حمراء الشدق ، قد أبدلك الله عز وجل خيراً منها! قال: «ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها ، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء»[1]. وكلما ذبح شاة أرسل لقرابات خديجة ، وكانت هالة ـ أخت خديجة رضي الله عنها ـ تطرق الباب ، فيتهلل وجه النبي عليه الصلاة والسلام ويقول: «افتحوا ، فهذه دقة خديجة ذكرتني بخديجة».

ولما نزل عام الفتح بمكة أمر أن تنصب خيمته مكان قبر خديجة ، وأقام بجوارها أيام الفتح. إنه الوفاء المحمدي... إنه خير الخلق وحبيب الحق ﷺ.

* * *

(١) مسند أحمد (٥٠/ ٣٧٥) ، ح ٢٣٧١٩.

الخمر أم الخبائث

في إحدى الدول العربية نشأ صاحبنا حتى أصبح يافعاً ، وترعرع في حضن أمه التي أطلقت له الحبل على غاربه ، فكان كلما ارتكب خطأً أسرعت إلى تبريره والتبسيط من آثاره؛ فإذا سرق من زميله دفتراً قالت: إنه دفتر رخيص الثمن ، ولا يستحق منا الانفعال ، ولعل الهدف من أخذه الدراسة ، فالهدف نبيل . . . . وعلى هذا المنوال نشأ حتى غدا شاباً!

ولا يخفى الفساد المنتشر في دولنا العربية ، بل في العالم كله ، فإن موجة الانفتاح الفضائي أورثتنا مصائب شتى ، فالأسرة تبني حجراً واحداً والمجتمع بفضائياته وفساده يهدم بمعوله مئة حجر ، وبذلك يعسر البنيان التربوي ، إلا من أحاط أسرته بأسوار كثيرة ، وربما وصل بها إلى درجة العزلة.

ولعل أمواج الفتن التي هاجت في أيامنا ، مع عواء الغرائز وكأنها ذئاب قد عضها الجوع ، تكاد تودي بسفينة الأسرة إلى الغرق . . . إلا برحمة من الله.

والأم مدرسة؛ إما أن تخرج علماءً ، وإما أن تخرج منحرفين يزيدون البلاء بلاءً والطين بلّة. وقد كانت أم صاحبنا ضحلة الثقافة رقيقة الخلق كحال كثيرات من أمهات اليوم ، وقد استهانت بالأساسيات ، حتى الكبائر منها ، مما انعكس على ولدها الذي تمادى في فساده وانحرافه لدرجة أنه جلب يوماً إلى البيت زجاجة خمر ، مما أثار أفراد الأسرة ، فقاموا ينهرونه على فعله ، وارتفع الصياح في البيت ، وصاحبنا يعانق زجاجة الخمر كأنها عروسه ، ويدافع عنها بكل شراسة . . . .

في مثل هذه المواقف يظهر جلياً دور الأم الحكيمة التي لا بد أن ترسم

حدوداً للأسرة ، وتمسك بزمام الأمر؛ لئلا يتخطى أحد أفراد أسرتها هذه الحدود ، ولكن ما دور أم صاحبنا اليوم؟

لقد دخلت مبتدعة حلاً وتبريراً ، وهو أن كأساً واحدةً لا تضر ولا تذهب العقل ، وإنما الخطر في الزيادة على ذلك. ثم وضعت على رأسها عمامة المفتي ، وجادت قائلة: إن الله عز و جل حرم الخمر لعلة ذهاب العقل ، وطالما أن كأساً واحدةً لا تؤدي إلى ذلك فلا أرى حرمة فيها. ثم تذرعت بالقاعدة الفقهية: (الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً)[1].

لقد غدت هذه المتفلسفة بين ليلة وضحاها عالمة في الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها ، ولكن فاتها قول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[2].

ولا تتعجب إذا قلت لك: إن سكان دمشق الذين بلغ عددهم نحو سبعة ملايين قد غدوا جميعاً علماء في الشريعة الإسلامية ، بل وسريعي الفتوى أيضاً ، فلا تلبث أعقد مسألة فقهية بين يدي أحدهم خمس دقائق ، فالحلاق عالم ، واللحام عالم ، والبائع عالم ، وعامل التنظيفات عالم . . . . .

ولعل الغريب في ذلك أن كل علم من العلوم وكل ميدان من ميادين الحياة له سياج يحميه ، لا يستطيع أحد الاقتراب منه أو مزاولته دون دراية وعلم ، فلا يستطيع من لا يحمل شهادة في الطب ـ مثلاً ـ أن يفتح عيادة لمعالجة الناس ، وإن افترضنا أنه فعل ذلك فسرعان ما ستغلق هذه العيادة ويودع صاحبها السجن بجريمة ممارسة مهنة بلا شهادة. . . . إلا الإسلام ، فإنه أشبه بكلأ مباح يرتع فيه من يشاء ، وليس له أسوار تحميه ، ولا محاسبة لمن اقتحمه من غير تخصص وتأهيل.

ومضت الأم على نهجها ، وأدمن الشاب على الخمر حتى اختلط بدمه

---

(١) الأشباه والنظائر ، لجلال الدين السيوطي.

(٢) سنن أبي داود (٠١/١٠٦) ، ح ٣١٩٦.

وسرى في شرايينه وأوردته ، ودارت الأيام ، حتى كانت تلك الحادثة المروعة التي جنت فيها العائلة كلها ما زرعته الأم!

لقد كان ذلك يوم دخل عليها وقد طافت الخمرة في رأسه حتى أغلقت مسالك عقله وتفكيره ، وتاه عن وعيه وإرادته ، واقترب منها قائلاً: أنت حبيبتي . . . أنت عشيقتي هذه الليلة!

فثارت ثائرة الأم وصاحت في وجهه: ويحك أيها المخمور ، ابتعد عني ، قاتلك الله ، أنا أمك . . . .

ولم تفلح صرخات الأم ونصائحها المتأخرة ، فقد سكر الولد حتى غاب عن عقله وتفكيره ، بل وعن فطرته أيضاً ، ودنا منها قائلاً: لا أفهم ، أمي . . . أختي . . . أنت حبيبتي!

وأمسك بها محاولاً اغتصابها ، فدفعته وقالت: ويلك استيقظ ، فأنا أمك. ولكن أين العقل الذي تخاطبه؟

وبلمحة بصر أخرج الابن المدلل سكيناً من جيبه ، وصرخ في وجه أمه: إن لم تمكنيني منك سأقتل نفسي. ووضع السكين على صدره ، وأخذ يجرح صدره شيئاً فشيئاً ، وبدأت الدماء تسيل منه ، وهو على غفلته يصرخ: سأقتل نفسي.

فلما رأت الأم ولدها وقد فقد عقله حتى كاد يقتل نفسه حقاً ، ورأت دماءه تنزف ، أدركتها الشفقة عليه ، ولكنها كانت شفقة أم سفيهة رقيقة الدِّين . . . هذه الأم التي فهمت الحنان على طفلها بأن تفرط في دلاله وإعطائه كل مايحب دون حساب ، وهي اليوم تشفق عليه من نفسه . . . ولكن كيف؟

لقد مكَّنته من نفسها ، وأعطته ما أراد ، ووقعت الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، وتلطخت الأم وولدها!

فتصور معي نتائج تفريط أم جاهلة ، ساقها جهلها إلى التفريط بأم الخبائث حتى انصب هذا البلاء عليها فاغتُصبت ، لا بيد غريب فاجر ، وإنما بيد فلذة كبدها ، الذي طالما أرضعته ورفعت الأذى عنه ، وضمته طفلاً بريئاً وديعاً ،

وحضنته في حجرها ، وسهرت عليه الليالي ، واختلطت دموعها بدموعه .

لقد علا الشاب أمه كما تفعل البهائم ، ولا عجب في ذلك ، فعندما يضيع العقل ينحدر المرء إلى درجة أحط من البهائم .

ثم تتابعت المصيبة ، فعندما أفاق الشاب وعلم ما وقع منه أظلمت الدنيا في وجهه ، وما كان منه إلا أن قتل نفسه ، لترى الأم بعينها ولدها وهو يضع السكين في بطنه ، فينفر الدم وتخرج الأحشاء ويقع صريعاً منتحراً .

لقد ضاع شبابه ، وضاعت دنياه ، بل وضاعت آخرته أيضاً ، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «من حلف بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال ، ومن قتل نفسه بحديدة عُذِّب بها في نار جهنم»[1] .

ولكن ما الذي أوصل العائلة إلى الجريمة والعار؟

إذا عدنا إلى البدايات تذكرنا كيف كانت البداية في الكأس الأولى ، ثم تبعته الثانية ، فالثالثة . . . . حتى آل الأمر إلى ما آل إليه .

إن أكبر الجرائم التي وقعت في التاريخ كانت بدايتها بسيطة ؛ فكل زنا إنما مبدؤه نظرة ، وسرقة الجمل تبدأ بسرقة بيضة ، والرشوة بالملايين كانت بدايتها بقبول مئة ليرة . . .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : «الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل ، فإذا انتُهكت الحرمة وعمل بالمعاصي واجتُرِئ على الربِّ ، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه ، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً»[2] .

ولعل المرأة قد طبع على قلبها حين سمحت بالكأس الأولى ، ولم ترَ فيه بأساً ، فالعقل السليم يعلم بأن الكأس الأولى ستتبعها الزجاجة الأولى ، فالثانية ، فالعاشرة .

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٥٢) ، ح ١٢٧٥ .

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (١٥/ ٢٥٥) ، ح ٦٩٥٨ .

ورضي الله عن علي حين قال في حكم شارب الخمر مقالته الشهيرة: «إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وعلى المفتري ثمانون جلدة»[1].

ولعل استسهال شرب الخمر من المصائب الكبيرة التي تسربت اليوم إلى مجتمعاتنا الإسلامية عبر بعض أجهزة الإعلام الخبيثة ، كالمسلسلات التركية المدبلجة للغة العربية التي سلبت عقول الناس اليوم ، فهم يعرضون الأسرة الإسلامية في رمضان وقد تحلقت حول مائدة الإفطار ، وعلى المائدة كؤوس الخمر!

فكأنهم يريدون أن يغرسوا في عقول المسلمين بأن الدين والصيام لا يتعارضان مع شيء من الخمر ، وكأنهم نسوا ما ورد في السنة بأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها والمشتري لها والمشتراة له[2].

وفي رواية أخرى: وناظرها.

وأنه ﷺ قال: «يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحون وقد مسخوا[3] قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف[4] وقذف ، حتى يصبح الناس فيقولون: قد خسف الليلة ببني فلان ، وخسف الليلة بدار فلان خواص ، وليرسلن عليهم حاصباً من السماء كما أرسلت على قوم لوط؛ على قبائل فيها وعلى دور ، وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً؛ على قبائل فيها وعلى دور ، بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم

---

(١) البيهقي في الكبرى (٨/ ٣٢١).
(٢) سنن الترمذي (٥/ ١٠٨) ، ح ١٢١٦ .
(٣) المسخ: قلب الخلقة من شيء إلى شيء أقبح.
(٤) الخسف: ذهاب الشيء في الأرض ، والغور به فيها.

القينات[1] ، وأكلهم الربا ، وقطيعتهم الرحم . . . وخصلة نسيها جعفر»[2] .

وفي نهاية المطاف أذكر بذلك الرجل الذي خُيِّر بين قتل نفس أو شرب خمر أو الزنا بامرأة ، فرأى أن الخمر أهونها ، فشربها ، فسكر ، فقتل الرجل وزنا بالمرأة .

* * *

(١) القينات : المغنيات .

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٤٩) ، ح ٥٣٧٠ .

العجـوز المتصابيـة

يتصف كثير من الفنانين بطباع غريبة وسلوك غامض ، وكثيراً ما ترى الرسامين والموسيقيين غريبي الأطوار ، ولعلّ الغرابة في تصرُّفاتهم تشكِّلُ باعثاً من بواعث الإبداع لديهم ، ولكننا ننظر إلى هذه الغرابة باحترام؛ لأن صاحبها يُبدِعُ فنوناً راقية تخطفُ الألباب وتجذب الأبصار.

لقد كانت بطلتنا مبدعةً في فنِّها ، وترسمُ لوحاتٍ ذات قيمةٍ فنيَّةٍ عالية ، وشيئاً فشيئاً بدأت تعرض أعمالها الفنية في معارض باسمها ، وجذبت إليها الأبصار. وفي أحد معارضها تعرفت على قاضٍ ذي شأنٍ ومكانةٍ في المجتمع ، فشدَّت انتباهه ، وسرعان ما وقع فريسةً لعذوبةِ فنِّها وسحر ريشتها ، حتَّى أنه لم يرَ دمامتها وشدة سمرتها. فسبحان الله! كيف تخرج ملكات الجمال من تحتِ ريشتِها ، وكيف يبدع الدميم بريشته أروع الحسناوات ، وكأنه يصبُّ كلَّ ألمِهِ من سوءِ حظِّهِ في لوحةٍ يتقمَّصها حالماً بأن تكون صورته صورتها.

وكم رأينا الحب يعمي المُصابَ به ويصمُّ آذانه ويُخرس لسانه ، فلا يرى حبيبه إلا ملَكاً هابطاً من السماء ، ولا يسمعهُ إلا كمعزوفةٍ تسلبه لُبَّه ، فيسكتُ عن كلِّ أخطائهِ ولا ينطق لسانه إلا بالثناء. لقد برع القاضي بشخصيتها الاجتماعية الناضجة واتّساع دائرة معارفها الثقافية ، وتطور الإعجاب.... ثم كان الزواج الذي مضت الأشهر الأولى منه حلوة ، ثم بدأت المرارة تتسرب إلى فمه؛ إنه تقيٌّ محافظٌ ذو مكانةٍ اجتماعية مرموقة ، تحيط به الهيبة ، وكيف لا وهو الذي يتربَّعُ على قوس القضاء ، ويتسابق الناس لكسب ودِّه والتقرُّب إليه ، وليتك تراهُ حين يتصدَّر قوس المحكمة يتلو حكماً ، عند ذلك تتجمَّد

الأحداقُ في العيون ، ويسودُ القاعة صمت القبور ، حتى تكاد تظن أن النَّفَس قد انقطع ، فلم يعد الناس يأخذون الشهيق وينفثون الزفير .

وكلُّ حكمٍ يصدره قاضينا تتجلجلُ له المحكمة ، ويتوقّف عليه مصير كثير من الناس ، فربّما أشار بإصبعه لرجلٍ أشيب داخل القفص قائلاً : حكمتُ بسجنك عشرين عاماً ، فيصاب السجين بانحلالٍ في مفاصله ، ولا يصمد على القيام ، فيقع جاثياً على ركبتيه ، ولعلّهُ يميلُ بإصبعه قليلاً ليشير إلى شابٍّ لم يتجاوز الخامسة والعشرين قائلاً : أما أنت فقد حكمْتُ عليك بالإعدام ، فتضجُّ القاعة بالصراخ والبكاء ، وتلطم النساء وجوهها ، وتنفر الدموع بلا ضابط .

بوسعك أن تتأمَّل هذه الهيبة الكبرى التي قهرت كثيراً من الناس وملأت الحناجر غصةً ، تتهاوى أمام فتاة دميمة تظن أنها تعيش في ضواحي نيويورك أو على شواطئ ميامي . وكم دارت صراعات داخل البيت للَجْم تلك المرأة الجموح ، وكم بذَلَ من الجهد لفرض سطوته ونفوذه عليها ، ولكن دون جدوى ، فبعض النساء يتصفن بطباع لا تلجم وسلوك غير قابل للإصلاح عسير عن التهذيب . لم يكن مقبولاً أن يكون قاضينا أسداً في محكمته وقطّاً في بيته ، وليس من اللائق أن يقذف بالأحكام من فوق قوس محكمته وامرأتُهُ تقفزُ بلباس البحر في مسبح مختلط ، وليس من المعقول أن يرضى باستلقائها على حافة المسبح ؛ لتحصل على بشرة برونزية اللون ومئات من الشباب يرقبونها قائلين : إنها امرأة القاضي . فالمجتمع المحافظ لا يقر بالتعرّي وصداقة الرجال للنساء ، والمجموعات السياحية وتبادل السهرات والمزاح الهابط وإلقاء الأستار والحواجز .

وكلما اشتدَّ صاحبنا في زجرها اشتدَّت في عنادها ، حتى إذا وصل إلى حافة الطلاق انتكس على رأسه وعاد عاشقاً لا يرى ولا يسمع .

واستمرت الحياة على هذه الشاكلة ، وأنجبت الزوجة أربعة أبناء ذكوراً وإناثاً ، وكلما قال لها : اعقلي . . . لقد كبرنا ، تقول : أنت كبرت وحدك ، أما أنا فسأبقى صغيرة حتى الثمانين .

ولأننا نعيش في مجتمع أدمن أهله على الثرثرة ، فقد انتشرت الروايات بين القاصي والداني ، مثل: هذه امرأة القاضي تلعب كرة الماء في مسبح كذا مع ثلاثة من الشباب العابثين! ومثل قولهم: إنها تعشق شاباً تتسكَّعُ معه في النوادي والمطاعم ، ومنها قولهم: رأيناها تتردَّد على بيت فلانة التي تجمع الرجال والنساء في جلساتٍ مشبوهة. . . . ونحوها. لم يستطع القاضي التصبُّر كثيراً ، فأخذت نظرات الناس تلاحقه شامتةً بما أصابه ، واهتزت هيبته ، وبدأ مركزه الوظيفي يتأرجح ، عند ذلك اشتعل البيت ناراً ، ومن كلمةٍ إلى أخرى وبين أخذٍ وردٍّ تطاولت عليه زوجته فلطمته على وجهه! عندها انهار كبرياء هذا الصنم الأشم ، فبدأ يرى بعين الحقيقة ، لا بعين الحبيب العاشق ، فقذفها بالطلاق. . .

خرجت العابثة ـ وقد بلغت الخمسين من عمرها ـ من البيت ، واتجهت إلى أولادها في أمريكا ، شاكية لهم أباهم المتحجِّر ، صاحب الفكر المنقرض والعقل الجاهلي ، الذي قيدها كثيراً وسلبها حريتها وحاول أن يحنطها معه ، ولكن نبض الحرية الذي يسري في دمائها لم يستطع الصبر ، وهاهي قد تركت القاضي وبلده أيضاً لتعيش حياة الأحرار في دولة الحرية ـ كما زعمت ـ أمريكا.

إن الكثير من الناس لا يحسن التفريق بين التحرر والتفلُّت ، فلا بأس أن تعمل المرأة ، أو تقود سيارتها بمفردها ، أو تلقي محاضرة على محفل من الرجال ، أو تمارس الطب والتعليم ، ولكن ليس من التحرر أن تتعرَّى من ثيابها ، وتلاعب شباباً بالكرة في مسبح مختلط ، أو تتمدد عاريةً مسلمةً نفسها لشاب يدلِّكها تحت دعوى المعالجة بالمساج ، أو ترافق شاباً سيِّئ السمعة بثيابٍ فاضحة في جولة خارج دمشق للترويح عن النفس ، فكل ذلك يدخل في دائرة التفلت ، والتحرر منها بريء. ولكَمْ يطيب لكثير من الناس خلط المعاني ، فالكذب ذكاء ، والغش شطارة ، والغزل المخجل انطلاق ، وإبراز المفاتن عرض للأزياء ، والسهرات الماجنة نشاط اجتماعي. . . .

ومرت الأيام ، وتزوج القاضي امرأة ثرية اشترته بمالها لإكمال صورتها

الاجتماعية ، ولكن صاحبنا أصيب بمرض السكري الذي أذهب بصره ، فسرعان ما تململت منه ، واتصلت بأولاده قائلةً وبكلّ تبجُّح: خذوا أباكم لإحدى دور العاجزين ، فلا طاقة لي على احتماله. وأما المطلقة العابثة فسرعان ما تعرفت على شاب يعيش في أمريكا ، فمارست معه التحرر كما تفهمه ، وكان الشاب يبيعها جسده مقابل ما تعطيه من أموال ، وما الذي يجمع شاباً مع امرأة عجوز إلا المال؟

وبدأ أولادها يكتشفون سلوك أمهم الماجنة ، فطالبوها بالاستقامة ، فادّعت أنها زوجة سرية لذلك الشاب ، وأي عقل يقبل أن تتزوج عجوز في الخامسة والخمسين شاباً يصغرها بثلاثين عاماً! وأخذت أموالها تنقص شيئاً فشيئاً ، عند ذلك نبذتها دولة التحرر ، فعادت إلى الشام. . . .

ويموت الزمّار وإصبعه ما تزال تلعب ، وكما قالوا: ذنب الكلب أعوج ولو وضعته بمئة قالب. وقد ورد في حديث قدسي أن الله عز وجل يقول: «أبغض ثلاثاً ، وبغضي لثلاثٍ أشد ، أبغض الزناة ، وبغضي للشيخ الزاني أشد ، وأبغض المتكبرين ، وبغضي للفقير المتكبر أشد ، وأبغض البخلاء ، وبغضي للغني البخيل أشد. وأحب ثلاثاً ، وحبي لثلاث أشد ، أحب الطائعين ، وحبي للشاب الطائع أشد ، وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد ، وأحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد». أو كما قال.

فتعساً لمن شاب شعره وهزلت عظامه ، وما زال يسعى إلى جهنم ركضاً على يديه وقدميه ، ونعوذ بالله من خاتمة السوء ، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً عسَّلَهُ. فقيل: وما عسَّلَهُ؟ فقال: يفتح الله عز وجل له عملاً صالحاً قبل موته ، ثم يقبضه عليه»[1].

عادت العجوز الماجنة إلى بيتها ، وكان أقرباء زوجها يقيمون في جوارها ، وفي ذلك الوقت كانت العراق قد نكبت بالمجرمين الأمريكيين ، وكان

---

(١) مسند أحمد (٢٦/١٨٨) ، ح ١٧١١٦.

الملايين من أهل العراق قد خرجوا منها فراراً بدمائهم وأرواحهم ، ولا يخفى على أحد أن التشرد صنوُ الفقر ، وكان ذلك فرصة للعجوز التي تظن أنها ما زالت في سن الصِّبا ، فاصطادت شاباً عراقياً في الثالثة والعشرين من عمره يبحث عن رغيف يومه ، فأخذ يتردد إلى بيتها؛ ليفجر بها.

وللناس أعين ، ولا يدوم سرٌّ إلى الأبد. . . . لقد أثار تردده عليها مخاوف الجيران والأقرباء على أولادهم وبناتهم وسمعة عمارتهم وحيِّهم ، فحذروها ، فأبت إلا أن (تمارس الحرية) ، فشكوا أمرها للسلطات المسؤولة. وتخيل معي كيف طرق الشرطة عليها الباب ليضبطوها بالجرم المشهود ، واستطاعت تهريب الشاب العراقي ، ولكن رجال الشرطة كسروا الباب ، وساقوها سوق النعاج. وتأمل معي تلك العجوز التي تجرُّ وتركل وتدفع وتشتم وقد تدلّى الشعر الأشيب على جبينها ، وبدت التجاعيد المفزعة على وجهها ، فأي ذلٍّ وعارٍ وفضيحةٍ أشد من هذا!

وسرعان ما تدخَّل الأولاد والأقارب ، فسعوا في إخراج الشاب من البلد ، فلحق بلبنان ، وكانت العجوز تسافر إليه بين الحين والحين لتلتقي به وتنفق عليه ، واختارت سكناً بعيداً عن الأقرباء في إحدى ضواحي دمشق ، وما زالت على سيرتها الأولى ، وقد بلغت اليوم السبعين من العمر ، ولكن السنوات لا تزيدها إلا فجوراً وانغماساً في الرذيلة.

وكم كانت خيبة أولادها كبيرة ، وكم كان عارهم ثقيلاً.

ولعل هذه القصة تدعونا لنتأمل قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يخاطب الشيخ فيقول: عبدي ، شاب شعرك وانحنى ظهرك ، فاستحي مني فإني أستحي منك»[1].

وقد ورد أن من تجاوز الأربعين ولم يغلب خيرُهُ شرَّه قبَّلهُ الشيطان من بين عينيه.

---

(١) الترغيب والترهيب ، للمنذري.

وأن من تجاوز الستين فقد دخل في مسالك الآخرة.

وقوله: «من مات على شيء حُشر عليه»[1].

فيبدو أن العجوز ستحشر زانيةً والعياذ بالله. فنسأل الله حسن الخاتمة.

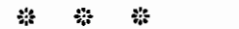

(١) المرجع السابق.

اللهـو حتـى الـزواج

لقد حُدِّد موعد زفافها ، وستتزوج بعد ثلاثة شهور ، لكنها ما زالت مستمرة في علاقاتها المحرّمة ، ولطالما نصحتها صديقتها قائلة: اتّق الله يا فلانة ، ستتزوجين بعد شهور ، أنتِ الآن مخطوبة ، وهنالك رجلٌ يريدك بالحلال. ولكنها تأبى النصيحة ، وتتابع مسلكها القديم متذرعة بقولها: دعيني أستمتع قليلاً قبل أن أدخل سجن الزواج وأتقيد برجل واحد ، يا له من حرمان ، فإنّ لكل شاب جاذبية خاصة ، وسأحرَم من هذا التعداد. ثم تتابع كلامها معترضة على شريعة الله عز وجل: هنيئاً للرجال يتقلبون بين أربع زوجات ، بينما نحن ـ معاشر النساء ـ نتقيد في سجن واحد لا نتنفّس إلا منه!

وفي ليلة من الليالي اتصلت صاحبتنا بصديقتها فزِعةً مذعورة تتوسل إليها أن تأتيها حالاً.

تقول صديقتها: فذهبْتُ إليها ، فإذا هي تبكي.

فقلت: ما الخبر؟ أتبكين وزواجك بعد ثلاثة شهور؟ إنه لجديرٌ بمثلك أن تفرح وتسعد وتستبشر؛ لأن زواجها قد اقترب!

فقالت: أي فرح؟ إنها مصيبة كبرى قد أحاطت بي!

قالت: ما المصيبة؟

قالت: لا تخبري أحداً.

قالت: نعم ، ما المصيبة؟

فأجابتها: إني حامل.

فقالت: ويحك! ماذا تقولين ، أحقّاً أنت حامل؟

قالت: نعم.

فسألتها: من زوجك؟

قالت: لا ، فإن زوجي لم يقربني بعد.

فقلت: ممّن؟

قالت: من صاحبي ، وقد مضى على حملي شهر ، وبقي على الزواج ثلاثة شهور.

لقد بحثت وصديقتها عن حلٍّ ، فلم تجداه ، وقد طلبتا من كثير من الأطباء القيام بعملية إسقاط الجنين ، ولكن دون جدوى ، إذ لم يرضَ أحد بذلك ، والعجيب أن رأي الأطباء والقابلات اجتمع على رفض الإسقاط ، ويبدو أن هناك خطورة على حياتها في مثل هذه الحالة.

ولم تستطع الفتاة إخبار أهلها؛ لأنهم لو علموا لذبحوها ، فكان كل يوم يمضي يمرُّ كسنة طويلة من حياتها التي أصبحت مليئة بالكآبة والبكاء ، فكانت كل يوم تصارع الآلام الهموم. وغدت تائهة بين موتين؛ إن أسقطت هلكت ، ولا أحد يرضى بإسقاطها ، وإن أبقت على الجنين افتضحت ، بل ربما ذُبحت بيد أبيها أو أحد إخوتها ، فالموت يحاصرها من كل مكان.

إنه العبث وعدم تقدير المسؤولية ، من قبل الفتاة وأهلها على حد سواء إنه ثمن الخطيئة... وقد كان ينبغي لفتاة مخطوبة قد اقترب زفافها أن تقفز على الأرض قفزاً من الفرح والسرور ، وأن تسبح في بحار من العواطف والغزل والمواقف الرومانسية ، لا أن يغشاها الهم والكمد.

وكان الحل الأخير أن قامت الفتاة وصاحبتها بالاتصال ببعض الشيوخ للمساعدة ، ولكن المؤسف أنها لم تجد أحداً يستجيب لها أو يفتح لها باب التوبة ، أو حتى يشير عليها بحلٍّ لهذه المصيبة. أحدهم عنّفها ، والثاني صرخ في وجهها ، وآخر أغلق سماعة الهاتف في وجهها. لعلها لم تتصل بأهل الحكمة من العلماء والشيوخ ، أو ربما هذه نتيجة قدّرها الله عز وجل لتكون عبرة لمن يعتبر.

تقول الصديقة: كانت في كل يوم يزداد همُّها ، وتخنُقها العبَرات ، بينما مثيلاتها من العرائس يبحثن عن ملابس الزفاف وعن ترتيبات ليلة العرس ، وعن الصالة التي ستحتفل فيها ، والبلد الذي ستسافر إليه بعد الزواج . . . . وفي يوم من الأيام اتصلت بي أمها وهي تبكي ، وقالت: يا فلانة ، ماذا تدرين عن صديقتك؟ فأجبت: ما الذي جرى؟ لقد كنت عندها بالأمس. فقالت الأم: لقد دخلنا عليها صباحاً ، فوجدناها ملقاة على الأرض ، فحملناها إلى المستشفى ، فقالوا لنا: ماتت من الليل.

تقول الصديقة: فبكيت وقلت: كيف ماتت؟ قالت: لقد تناولت حبوباً وسموماً وانتحرت ، لقد قتلت نفسها ، وزفافها بعد ثلاثة شهور.

وأتساءل هنا : لماذا انتحرت؟ بل ما الذي قتلها؟

فتأتي الإجابة: إن ذنوبها وهمومها ولهوها وعبثها هي التي قتلتها ، إن المعصية أغرتها ، فأصبحت لقمة هيِّنة ليّنة بفم الشيطان ، فتابع رسالته معها حتى النهاية . . . . لقد دفعها بدايةً إلى المعصية قائلاً لها: لا بأس أن تعيشي حياتك مثل سائر الفتيات ، استمتعي بوقتك ، واكتسبي الخبرات ، ولا تكوني بلهاء غافلة ، ولا تفكري على نمط الأجداد في العصور الحجرية ، لا بأس أن تلتقي به في الحديقة ، فلعلك تحبينه ، هل تخسرين يدك إن أمسك بها؟ وما المصيبة إن قبّلك أو ضمّك؟ إنه يعبّر لك عن عاطفته. ما الخسارة في أن تتجولي معه في سيارته؟ لن يراك أحد. ما العيب في أن تلتقي به في مكان مغلق لتكتشفي صدق عاطفته من كذبها؟ مالك غاضبة؟ لقد عبّر حبيبك عن حبّه ، وما زلتِ حتى الآن بكراً ، فلن تخسري شيئاً. لا تبكي ، فإن لكل مشكلة حلاً ، وكم من فتاة قامت بعملية الترقيع وعادت بكراً كما كانت ، لم يُقبّل فمها إلا أمّها. . . .

فلمّا حملت قال لها الشيطان: لقد فُضحتِ ولبسك العار من رأسك لأخمص قدميك ، ولسوف تُذبحين ، هلمّي فاهربي من هذا العذاب واقتلي نفسك! وما زال الشيطان يعبث بعقلها وغريزتها ومخاوفها حتى قضى عليها ، فهلكت منتحرة كافرة ليس لها إلا النار مصيراً.

دعني أكسِّرُ أوصالي وأغلالي ... فالهمُّ أعلن بين الناس أسراري
دعني أسحُّ دموعاً أُشربَتْ بدمٍ ... وأرسم الحزن في قرطاس أشعاري
أصحو وأغفو ولكن بين أجنحتي ... قلبٌ تقلّبه الشكوى على ناري
أصبو إلى روضةٍ في الحبِّ وارفةٍ ... كبلبلٍ موجع يصبو إلى دارِ
غيري تربَّتْ على القرآنِ باسقةً ... فأثمرتْ وازدهرت في طاعة الباري
كأنها وردةٌ شمّاءُ زاهيةٌ ... في دوحةِ الطّهْرِ أو في روضِ أزهارِ
في قلبِ رابيةٍ في ثوبِ زاكيةٍ ... في طهر غاديةٍ في حسنِ أقمارِ
أما أنا فادلهمّ الخطبُ في كبدي ... وسودت سيئاتي لوح تذكاري

أقول للمجتمع:

هذا ـ والله ـ حرام عليكم، ووزرٌ في أعناقكم. إن هذه الفتاة ضحية، لا شك أنها أخطأت، ولكنها ضحية مجتمعها وأهلها. إنها ضحية لمجتمع سمح لهذه الأمور أن تنتشر بلا رادع ولا وازع، ثم إذا تأثرت الفتاة بهذا الانفتاح فأخطأت، قام المجتمع فجرَّمها وقام الأهل فذبحوها.

إن على هذا المجتمع أن يختار بين واقعين لا ثالث لهما: إما مجتمع منفتح يسمح بالاختلاط والعري والحفلات والفضائيات والسهرات، ثم لا يُعاقب ولا يلوم الفتيات على ممارسة الجنس بوصفه نتيجة طبيعية من نتائج هذا الانفتاح، وذلك كحال المجتمعات الأوروبية. أو مجتمع إسلامي منضبط يحرِّم الاختلاط والعري والفضائيات المبتذلة، ويربي الأجيال على القرآن والسنة، ثم بعد ذلك إن أخطأت الفتاة فليطبق عليها حكم الإسلام بالجلد، لا حكم الجاهلية بالذبح. فإما أن يكون مجتمعاً أوروبياً محضاً، أو إسلامياً صرفاً. أما هذا المخلوق الممسوخ الذي له رأس خنزير وجسد قرد، والذي يسمح بالإباحية ثم يذبح على الزنى فإن ازدواجيته مرفوضة.

لقد كانت الأم غافلة لا تعلم عن ابنتها شيئاً، والأب منشغل لا يلقي لابنته بالاً.

أمي لها في بحور الفن ملحمة ... قد اعتلت في المآسي كل تيّارِ
الزَّيف أتعبها والسوق غيَّبها ... يا ليت لي عطف أمٍّ ذات أطمارِ

ولي أبٌ لم أذق في ظل مهجتهِ معنى الأبوّة من عطفٍ وإيثارِ
أحلامه في رؤى الصفقات لاهثة في بؤس سمسرةٍ أو طيشِ أسفارِ
على لساني سؤالٌ عنه محترقٌ قد باع حبي وتحناني بدينارِ
طار الرقيب فهان العرض في زمني حتى استوى فيه إقبالي وإدباري
تسطو الذئاب على شاةٍ مغفّلةٍ فاستسلمَتْ بين أنيابٍ وأظفارِ
قد فتحوا للبلايا ألف نافذةٍ ودون صوت التقى أسوارُ أسوارِ

نعم لقد فتحوا للفتاة كل أبواب الفجور ، الإنترنت مفتوح على مد البصر ، وما تشتهي تراه وتدخله ، وهو مليء بملايين الصور الداعرة الفاجرة. والأب لا يعلم إلا جمع الدينار والدرهم ، وقد غاب عن البيت وتركها يتيمة ، مع أن لها أبوين . . . .

أو ربما قال: خذي المال يا بُنية ، وعندك السائق تذهبين معه إلى أي مكانٍ شئتِ ، ولكن أرجوكِ لا تزعجيني ، فعندي مسلسل أتابعه ، اذهبي مع صاحباتك ، والسائق معك ، فأنت إن شاء الله طاهرة صالحة!

لقد نسي أن السائق رجل ، ونسي أن صُويحباتها فاسدات . . . .

ثم ما النتيجة؟ إنها الانتحار!

والأم مسؤولة ، والأب مسؤول ، والمجتمع الممسوخ مسؤول أيضاً.

وأختم هذه القصة الواقعية المؤلمة بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[1].

* * *

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

خاتمــة الســـوء

كان صاحبنا إماماً تقياً ورعاً حافظاً لكتاب الله ، يعمل ـ قبل سبعين سنة تقريباً من اليوم ـ إماماً على سفينة تجارية ، فكان يؤذن لكل صلاة بصوت جهوري عذب ، وما أجمل الأذان بين الأمواج المتلاطمة في وسط البحار والمحيطات!

ثم يجمع أصحابه؛ ليؤمهم بقراءة مليئة بالحب والخشوع ، وصوت شجي يفيض عذوبة ورقّة. واستمر على هذه الحال سنوات...

وفي أحد الأيام رست سفينته في أحد المرافئ ، لتمكث فيه أسبوعاً ثم تعاود الإبحار.

وتفرق أهل السفينة في تلك البلاد الغريبة ، وسعى كل منهم على حاجته؛ فاتجه بعضهم إلى الملاهي ، وانغمس غيرهم بين أحضان الغانيات ، وانتشر آخرون في الأسواق... ، وكلٌّ يغني على ليلاه. ومكث صاحبنا في سفينته عاكفاً على صلاته وقرآنه ، وقد عزم المكوث فيها حتى الرحيل ، لكن أحد الركاب جاءه قائلاً: انزل معنا لنرى معالم المدينة. فأبى وقال: إني ماكث في السفينة حتى موعد الرحيل. فألحَّ عليه قائلاً: هلمَّ بنا نتجول في الأسواق ، لعلك تشتري شيئاً لأولادك. وما زال به حتى نزل.

وأخذا يسيران في الشوارع ، وينظران إلى الغادين والرائحين ، ويحملقان في النساء المتبرجات ، فهذه قد كشفت شيئاً من ساقها ، وتلك شيئاً من صدرها...

وأخذ الشيخ يلتفت يمنة ويسرة ، ونسي قول رسول الله ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم»[1].

ونسي استقامته . . . أين الأذان؟ أين الصلاة؟ أين الإقامة؟ أين القرآن؟ أين العبادة؟ لقد نسي كلَّ ذلك ، وذهب أدراج الرياح ، فأطلق بصره في عورات الفتيات اللواتي يتفنن في إثارة الغرائز الجنسية.

وأقول: لعل أحدهم يدعي بأنه متين وصلب وثابت ، ولا تؤثر فيه نظرة من هنا أو قصة مثيرة من هناك ، أو غواية من حسناء ، فقد ترسخ الإيمان في قلبه رسوخ الجبال الراسيات ، فالرياح مهما عتت لن تهز صلابته!

وهذا الكلام يرد عليه من وجهين:

الوجه الأول: أتعتقد يا هذا أن الله عز وجل عندما خاطب عباده: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . . .﴾[2] قد قالها عبثاً؟

تنزه الله عن ذلك وتعالى علواً كبيراً. فإذا رأيت أنك لست بحاجة لهذا الأمر الإلهي؛ تكون بذلك قد نسبت العجز والعبث لكلام الله عز وجل ، وهذا خروج عن الملة باتفاق أهل العلم.

الوجه الثاني: أتعتقد بنفسك أنك أشد صلابة من عصمة الأنبياء؟ فهذا نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ يقول كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[3].

فنبيٌّ معصوم يخشى على نفسه من الزلل ، وصاحبنا قد ارتقى في درجات السمو فغدا محصناً عن مخاوف الأنبياء!

وبعد أن أطلق صاحبنا العنان لبصره ، وتكسرت الحصون الأولى في نفسه ، ودارت الشهوة في رأسه قال له صديقه: هلاّ ذهبنا إلى بعض أماكن اللهو.

---

(١) الحاكم في المستدرك (١٨/٢٤٦) ، ح ٧٩٨٨.
(٢) النور: ٣٠.
(٣) يوسف: ٣٣.

فأجابه الإمام غاضباً: لا لا.

فقال: لن نفعل شيئاً، لنرَ فقط أهذا الأمر حقيقة أم خيال؟!

فأجابه: إن كانت المسألة رؤية دون عمل فلا بأس في ذلك.

وأخذ ينظر، وما هي إلا بضعة أيام، حتى دخل صاحبنا مع الداخلين، وبدأ يفعل ما يفعلون....

وحان موعد الرحيل، ونادى قائد السفينة: أين إمامنا؟ فصمتوا، فأصرَّ عليهم، فقالوا: خير لك ألا تعلم. فألحَّ عليهم، فأجابوه بأنه في مناطق اللهو والخنا. فانطلق إليه ليعيده إلى رشده، فأصر الإمام على البقاء في هذه البلاد مدعياً أنه قد وجد نفسه هنا، وأنه كان ضائعاً غافلاً، وأبى الرحيل مع السفينة، فكبله القائد وحمله مكبلاً إلى غرفته.

وأبحرت بهم السفينة، وحانت الصلاة، فأبى الخروج من غرفته، فقيل له: اتقِ الله، ألست مسلماً؟

قال: إني نادم على صلواتي وقرآني، ولو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرت ما تعبدت الله أبداً، أرجعوني إلى المرفأ، فإني أريد أن أعيش في تلك البلاد وأموت فيها.

فقيل له: أنت إمامنا، قم فارجع إلى دينك وصلاتك.

قال: اخسؤوا واذهبوا عني، فإني أريد الرجوع إلى متعتي، أعيدوني إليها، تباً لكم، واحسرتي على ما ضاع من أيام حياتي!

واعتزل الناس في غرفته، وبدأ يعاني بعض الآلام، ثم اشتدت شيئاً فشيئاً، حتى ظهر أنه مصاب بمرض جنسي لم يكن له علاج في تلك الأزمان. ومكث في غرفته يتقلب في آلامه، واستقذره الناس.

يتحدث أصدقاؤه قائلين: ما زال على حاله حتى كانت تلك الليلة، وقبل صلاة الفجر بساعة، أي في الثلث الأخير من الليل، حين يتنزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفرله...

يقولون: فسمعنا صوت صرخة مدوية، فأسرعنا إلى الصوت مذعورين،

فرأينا الشاب الذي كان إمامنا يعض على خشبة في السفينة ويصرخ ، ثم بعد دقائق هدأ الصوت ، فأتينا لنوقظه فإذا به قد فارق الحياة الدنيا ، وقد قطع بأسنانه شيئاً من خشبة السفينة . فأي ألم أصابه؟ وأي عذاب اشتد عليه حتى قطع الخشبة بأسنانه؟!

هذا جزاء الشهوات ونهاية الملذات ، فاللذة قصيرة ، ولكن الندامة طويلة ، ورُبَّ متعة ساعة أورثت ندماً طويلاً .

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من مات على شيء بعثه الله عليه»[1] .

فمن مات في ملهى من ملاهي الليل وهو يهز برأسه ويحمل كأس خمره فسيحشر يوم القيامة بهذه الصورة ذاتها ، ومن مات على سجادته ساجداً فسيبعث يوم القيامة ساجداً كهيئته عند موته .

فتخيل معي هذا المشهد: تصور أن القيامة قد قامت ، وانشقت الأرض ، وتبعثرت القبور ، وحشر الناس؛ فهذا على هيئة سجود ، وذاك على هيئة ركوع ، وغيره قد رفع إصبعه معلناً الشهادة ، وآخر مدمى في ساحة من ساحات الجهاد ، وآخر بين أحضان راقصة ، وآخر يهز رأسه منتشياً وقارورة الخمر في يده والقيء يسيل من فمه . . . .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[2] .

* * *

(١) مسند أحمد (٢٨/ ٤٠٣)، ح ١٣٨٥٤ .

(٢) الزلزلة : ٧ ـ ٨ .

سبق السيف العذل

إنها حكاية أسرة محافظة ، فيها كثير من الضوابط الدينية والاجتماعية والعشائرية أيضاً ، ولكن زيادة الكبت في كثير من الأحيان تولد الانفجار؛ لأن كل ممنوع مرغوب. لذلك قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1].

فالمحافظة على القيم الدينية شيء جميل ، ولكنه إذا تجاوز حد الاعتدال لدرجة التشدد والتعنت أصبح الأمر منفّراً وذا نتائج عكسية. والرجل الحكيم هو الذي يستطيع أن يصل إلى ما يريد بالرفق دون استخدام العنف والشدة اللذين لا يثمران إلا التمرد والتعنت. ومصداق ذلك قوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[2].

لقد كانت هذه الأسرة ابنة بيئتها؛ فالأب والأبناء ملتزمون ، إلا أحد الأبناء الذي كان شاباً في مقتبل العمر ، منغمساً في الملذات المحرمة حتى شحمتي أذنيه ، وكم بذل الأب جهوداً في تصويب ولده ، ولكنه كان يزداد تعنتاً وانغماساً؛ لأن الأسلوب كان خشناً عنيفاً ، بل ويستفز الولد ليدخل في دائرة التحدي ، مع العلم أن المثل القائل: (إذا كبر ابنك فخاويه) مثل شعبي يتضمن حكمة بالغة. فالسيطرة على الشباب وتوجيههم لا يكونان إلا بإشعارهم بالحب والصدق والاحترام ، أما الصراخ والقهر والاحتقار فهي أساليب تؤدي إلى زيادة الاعوجاج.

لقد كان الأب يصرخ ويشتم ولده ، وكان الشاب يزداد فجوراً ، وكلما

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) صحيح مسلم (١٢/ ٤٨٧) ، ح ٤٦٩٨.

حصل على شيء من المال جمع أصدقاءه وتوجه إلى الشواطئ التركية؛ ليمارس شهواته من خمر ورقص وسهر ونساء، ثم يعود إلى بيته يتباهى ويتفاخر بعلاقاته وبالفتيات اللواتي تعرف عليهن والشواطئ التي عبث فيها حتى الثمالة.

وكان يقول كل ذلك أمام إخوته ذكوراً وإناثاً، دون أن يراعي حرمة للعفة، وكان الأب يمتلئ غضباً لذلك، ولكنه يخشى من ضربه؛ كيلا يضرب، فيرفع يديه إلى السماء داعياً: اللهم لا تمتني حتى أراه ميتاً مسحوقاً تحت العجلات. بل إن الرغبة في موته قد سرت لكل أفراد الأسرة لشدة سوئه وفظاظة معاملته، فهم يريدون أن ينقشع هذا البلاء، ولكن لا مفر.

لقد طلق الشاب الحياء طلاقاً ثلاثياً بائناً بينونةً كبرى، حتى إنه كان يأتي بالأفلام الإباحية، فيشاهدها في غرفة الجلوس دون أن يعير اهتماماً لأخواته اللواتي يسمعن الأصوات، وربما تمر إحداهن فترى شيئاً من ذلك.

ومرة طار صواب الأب لرؤيته ذلك، فما كان منه إلا أن أطفأ التلفاز وكسر بعض الأواني وطرد الشاب الذي أبى الخروج لشدة فجوره، وقال: إن شئت أنت فاخرج، وأما أنا فإني هنا مع القاعدين!

ودارت الأيام، ولم يزدد الأمر إلا سوءاً، حتى شاء الله عز وجل أن تنتقل الأسرة إلى بيت جديد، وشاء الله تعالى أن يكون هذا المنزل بجوار مسجد، وكان لهذا المسجد شيخ جليل يفيض نوراً وحكمةً ويحسن التعامل مع الشباب، حيث يتقرب إلى الفاجر ويلاطفه فيذوب الفاجر خجلاً، حتى يتحول إلى تقي.

وسبحان الله! كم أعجب من المتدينين الذين ينفرون من أهل المعاصي ويعاملونهم بشيء من القسوة والتكبر، مع العلم أن عمل الطبيب وجهده الحقيقي عند المريض؛ فحاجة المريض إلى الطبيب أمسُّ من حاجة السليم إلى الطبيب، وحاجة الفاسق الشارد إلى العالم أشد من حاجة التقي الورع إلى العالم. وازدراء الناس ـ ولا سيما العصاة منهم ـ أمر يغضب الله عز وجل؛ لأن الجميع عبيد لله تعالى.

وقد ورد أن رجلاً من بني إسرائيل رأى كلباً أسود ، فبصق عليه احتقاراً له ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قائلاً : قل للعبد الذي بصق على الكلب : أتعيب الصنعة أم تعيب الصانع؟

فإذا كان الله يأبى ويغضب من استكبار عبد على كلب ، فكيف باستكبار إنسان على أخيه الإنسان؟ بل كيف إذا كان هذا الإنسان أسوة أو قائداً؟

لقد كان ﷺ يجالس اليهود وعتاة الفجرة ويحسن إليهم؛ ليجذبهم إلى الدِّين والاستقامة ، فالأجدر ببعض المتدينين أن يلتزموا منهج المصطفى ﷺ في عملهم التربوي والدعوي.

لقد تقرب هذا العالم من ذلك الشاب الشارد ، ويوماً بعد يوم . . . وشهراً بعد شهر . . . بدأ جليد قلبه يذوب ويرق لنسمات الهداية ، وشاء الله أن ينقلب الشاب رأساً على عقب ، فتحول مئة وثمانين درجة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.

وإني أقول دوماً: إن الأدب وحسن الخلق مقدمان على العلم ، فلا يكفي للداعية أن يكون حافظاً عالماً متمكناً من اختصاصه ، بل لابد أن يتوج كل ذلك بتاج الأدب والخلق ، فعلم بلا أدب كماء لا يروي.

وقد فطرت القلوب على حب من أحسن إليها ، فالإنسان عبد الإحسان. وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق»[1].

وبدأ هذا الشاب يسعى جهده في إكرام أبويه ، حتى أصابهم بالذهول ، وكل يوم يرتقي في عبادته وسلوكه ، فكان يوقظ إخوانه جميعاً على صلاة الفجر ، ثم يقف مصلياً فيهم إماماً ، وكان قد رزق بصوت شجي يفيض رحمة ، فيصيب السامع بالبكاء تأثراً بصدق إحساسه عند القراءة ، فكأنه قد أوتي مزماراً من مزامير آل داود.

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٩٠).

وسبحان الله! هنالك من الناس من تحكم من مشاهدتك لسلوكهم أنهم من أهل النار ، ثم تفاجأ باستقامتهم وانقلاب حالهم ، فكأن الله عز وجل قد اجتباهم اجتباءً.

فهذا المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ وهو الحارس الشخصي لرسول الله ﷺ ، كان في جاهليته قاطع طريق سفاكاً للدماء ، ولكن الله تعالى اجتباه.

وصدق عليه الصلاة والسلام حيث قال: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم عمله بعمل أهل الجنة»[1].

لقد شاء الله عز و جل أن يهدي هذا الشاب ، فتحول إلى إنسان آخر ، بل وأخذ يرافق العلماء في الرحلات الدعوية خارج البلاد ، ينشر ما تعلمه بكل إخلاص.

وفي يوم من الأيام كان يقود سيارته في أحد الأنفاق ، فتوقفت السيارة لعطل أصابها ، فنزل منها وانحنى أمامها محاولاً إصلاحها ، وبينما هو كذلك إذ أتت شاحنة مسرعة لتصدم سيارته ، فتقدمت السيارة إلى الأمام ودهست الشاب بعجلاتها ، فأسرع الناس إلى سحبه من تحت العجلات وإسعافه ، ولكن الحادث كان شديداً ، فاشتد النزيف سريعاً ، وفي لحظات قليلة فاضت روحه إلى باريها.

يقول أحد المسعفين الذين رافقوه إلى المشفى: والله سمعناه يرتل القرآن وروحه تخرج.

وعندما علم الأب بموت ولده تحت العجلات أخذ يصرخ: أنا قتلت ولدي... أنا قتلت ولدي. ثم أصيب بالإغماء...

وإذا رجعت لمقدمة القصة تذكرت كيف كان الأب يرفع يديه داعياً ويقول: اللهم ، لا تمتني حتى أراه ميتاً تحت العجلات.

---

(١) صحيح مسلم (١٣/ ١١٠)، ح ٤٧٩١.

إنه التسرع في الدعاء!

لقد قال النبي ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات: دعاء الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»[1].

وقد ورد نهيه ﷺ عن دعاء المرء على نفسه، فلربما أصابت باباً في السماء مفتوحاً. فالحكمة ـ كل الحكمة ـ أن يدعو الإنسان لأولاده بالخير ولو أغضبوه؛ لأن صلاحهم خير من ابتلائهم بالمصائب. ودعاء الوالدين لا يرد أبداً، فلعل الفاسد يصلح، ولعل السيِّئ يتحول. وعالم الغيب وحده عليم بما ستكتبه الأيام....

* * *

(١) البيهقي في شعب الإيمان (١٦/ ٤١٠)، ح ٧٦٥٤.

شيـــخ الغيبوبـــة

كثيرة هي المواقف التي لا يسعنا إلا الوقوف أمامها مذعنين لقدرة الخالق العظيم وحكمته ، ولعل قصتنا اليوم من هذا القبيل. . . .

يقول الطبيب: كنت أعمل في أحد المشافي الحكومية في دولة عربية ، وأثناء مناوبتي في إحدى وحدات العناية المركزة كان بين المرضى رجل مسن تجاوز عمره الثمانين ، كانت حالته الصحية حرجة ، فهو يمكث في غيبوبة منذ مدة طويلة ، ويعاني من نزيف داخلي حاد ، وقد بات جسده موطناً للأمراض والعلل ، وكنت مشرفاً عليه ، فظللت أتابع هذه الحالة أربعة أشهر وهو في غيبوبة كاملة.

وفي عصر أحد الأيام كنت مناوباً في المشفى ، وإذا بالممرضة تناديني مستبشرة بأنه قد فتح عينيه فجأة وهبَّ جالساً بعد أربعة أشهر من الغيبوبة ، فاستبشرنا بذلك خيراً ، وأسرعنا إليه جميعاً وأحطنا به لنستطلع حاله ، فكما هو معلوم أن الإنسان عندما يكون في غيبوبة لا يستطيع النهوض مباشرة؛ لأن حالته الصحية لا تسمح له بالحركة.

وعندما جئته ووقفت عند رأسه قلت له: استرح يا عم ، فقد أفقت من غيبوبة طويلة ، ولا يجوز أن تتحرك من سريرك.

فقال: أريد أن أصلي العصر.

فقلت له: يا والدي أنت في غيبوبة ، ولن تستطيع أن تصلي الآن ، وستقضي في وقت لاحق ما فاتك.

فقال: لا ، بل أريد أن أصلي.

قلنا له: إذاً صلِّ في فراشك وأنت مستلقٍ.

قال: لا، بل في المسجد!

وبدأنا نحاول إقناعه، وهو مصرٌّ على طلبه، حتى أقنعته بأن يصلي في مكانه، فوافق ولكنه أصرّ على أن نأتيه بالماء ليتوضأ، ففعلنا، فتوضأ على فراشه ثم صلى مستلقياً، وبعد أن انتهى من صلاته عاد إلى غيبوبته ثانيةً ولم يتكلم بأي كلمة سوى الصلاة، وما إن غطّ في غيبوبته حتى فاضت روحه إلى باريها.

لقد شاء الله تعالى أن يختم له حياته بالصلاة بعد أن مكث أربعة أشهر في غيبوبة كاملة.

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً عسَّله»، قيل: وما عسّله؟ قال: «يفتح الله عز وجل له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه»[1].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى البَرْدين دخل الجنة»[2].

وقال: «من مات على شيء بعثه الله عليه»[3].

وقد مات صاحبنا وآخر عمله الصلاة، فسيحشر يوم القيامة ـ إن شاء الله ـ مصلياً، فهنيئاً له بهذه الخاتمة، وهنيئاً لمن يموت وهو ساجد أو راكع.

فرق بين هذا الرجل وبين رجل يموت نتيجة جرعة كبيرة من المخدرات، وآخر يموت وهو سكران، أو من يموت وهو يستمع للأغاني المثيرة للغرائز. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4].

فنسأل الله عز وجل أن يحسن ختامنا ويقبضنا على أحب الأحوال إليه.

* * *

(١) مسند أحمد (٢٦/١٨٨)، ح ١٧١١٦.
(٢) صحيح البخاري (٢/٤١٨)، ح ٥٤٠.
(٣) مسند أحمد (٢٨/٤٠٣)، ح ١٣٨٥٤.
(٤) القلم ٣٥ ـ ٣٦.

ولـو بعـد حيـن

قصتنا اليوم تدور أحداثها في دمشق في مرحلة الاستعمار الفرنسي ، وكلنا نسمع بتلك المرحلة التي مرت فيها سورية ، إذ اجتمعت فيها القوتان الفرنسية والإنكليزية ، ولكن الثوار والمقاومين كانوا ينتقلون من دولة إلى دولة ـ ولا سيما بين الحدود السورية والأردنية ـ لدفع الظلم والعدوان عن أبناء أمتهم ، ومرت تلك المرحلة بانتصاراتها وهزائمها .

لقد كان الفرنسيون يمارسون سياسة استبدادية مليئة بقهر المدنيين ، ولا أنسى حين ثارت فرنسا على أهل دمشق ، فأمطرت طائراتها أحياء الشام بالقنابل والنار ، حينذاك خرجت عائلات دمشقية كثيرة باحثة عن مأوى لأطفالها بعد أن دمرت بيوتها فوق رؤوسها . ولا أنسى كيف فتح الناس أبوابهم لإغاثة المتضررين ، فكان البيت الواحد يضم كثيراً من الأسر المشردة ، وتمثلت في تلك الأثناء اللحمة الوطنية كأروع ما يكون ، فكان الناس يفتحون بيوتهم لأناس لا يعرفونهم؛ إذ يكفي أنهم أبناء وطن واحد . ودارت الأيام . . . ومضت ثلاثون سنة على رحيل الفرنسيين من بلادنا .

لقد كان صاحبنا يخدم المستعمر الفرنسي أثناء مكوثه في بلادنا ، وهو اليوم شيخ ناهز السبعين من العمر ممدد على سريره ، يراجع ذكرياته بين أبنائه وأحفاده ، ولايشعر بندم أو شيء من تأنيب الضمير لخدمته جيش الاحتلال!

وبينما هو مستلقٍ يوماً إذ طرق الباب طرقاً عنيفاً ، ففتح أحد أبنائه الباب فاقتحم مجموعة من رجال الشرطة البيت ، وساقوا الرجل من فراشه ، فدبَّ الذعر في البيت كله ، وبعد أخذٍ وردٍّ تبين أنه متهم بجريمة لا علم له بها من

قريب ولا من بعيد. والعجيب في الأمر أن الأدلة حاصرته حصار السوار للمعصم ، فلم يستطع التنصل من هذه الجريمة التي ألصقت به ، وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه وهو يقسم اليمين تلو اليمين على عدم صلته بكل ما نسب إليه ، ولكن لا مناص من العقوبة ، وسرعان ما صدر الحكم بإعدامه ، فقد اكتملت عناصر الاستدلال.

ولا بد ـ كما تعلم ـ لتنفيذ حكم الإعدام من حضور رجل دين ومندوب عن النيابة العامة وآخر عن نقابة المحامين. يحدّث المحامي الذي كان مندوباً عن نقابة المحامين: طُرق عليّ الباب في الخامسة فجراً لأشهد تنفيذ حكم الإعدام على هذا الرجل ، فلما حضرنا ساحة التنفيذ صعد الرجل المحكوم عليه المنصة ثلاث درجات ، ثم التفت وقال: أشهد بالله العلي العظيم أنني بريء من هذه التهمة ولا علاقة لي بها من قريب ولا من بعيد ، إلا أنني أريد أن أحدثكم حديثاً ، وأوصيكم أن تخبروا من وراءكم بقصتي. . .

إني أستحق الحكم بالإعدام ، ولكن ليس على هذه الجريمة التي اتهمت بها ، فأنا لم أرتكبها ، ولكن على جريمة أخرى ارتكبتها منذ أربعين عاماً! . . . .

كنت أخدم الفرنسيين في منطقة تسمى (أبو الشامات) ، وكنت مسؤولاً عن مخفرها ، وجاءني الفرنسيون يوماً برجلين من الفدائيين ، وطلبوا مني أن أتحفظ عليهما ، فسجنتهما في الإصطبل الذي جعلناه معتقلاً. وفي الصباح دخلت إليهما ، فإذا برجل منهما قد استطاع أن يفلت من قيده وهرب ، فذعرت ذعراً شديداً ، ولم أدرِ ماذا أفعل ، فخرجت إلى الطريق ، فرأيت رجلاً بدوياً يمتطي جملاً ، فألقيت القبض عليه وزججته في الإصطبل ، ثم أرسلت الجمل وما عليه إلى بيتي لأخفي آثاره ، فلما جاء الجنود الفرنسيون وسألوني عن الأسيرين أشرت إلى الأسير والبدوي ، فأطلقوا النار عليهما ، فأردوهما قتيلين ، ولم يعلم أحد بذلك ، وظننت أني قد نجوت من الانتقام ، ولكن شاءت الأقدار أن أُبتلى بعد كل هذه السنوات بجريمة لم أرتكبها؛ ليقتص لذلك

البريء الذي كنت سبباً مباشراً في قتله ظلماً. فأوصيكم أن تحدثوا من وراءكم بقصتي ، لتكون عبرة لمن يعتبر ، وليعلم الجميع أن انتقام الله آتٍ ولو بعد حين.

❊ ❊ ❊

خيبـــــة أب

لقد دارت أحداث قصتنا في مدينة دمشق عام (١٩٤٠) ، أي قبل سبعين سنة من كتابة هذا المؤلف ، ولكنها ما زالت تتكرر بصور مختلفة وبلدان متعدِّدة من أمريكا حتى روسيا ، قاطعة البحار والمحيطات والصحاري. والرقيب الجليل يسجِّل كل لمحةٍ ونفَسٍ ، وسيحاسبُ كلَّ عبدٍ وأمَةٍ على ما قدَّمت أيديهما من خيرٍ أو شرٍّ.

يحدِّثُ القاضي الشرعي الأول في محكمة دمشق بما رأى وسمع فيقول:

دخل عليَّ في أحد الأيام شيخٌ قد تراكمت السنوات على كتفيه الهزيلتين ، فانحنى ظهره ، وشاب شعره ، ورقَّت عظامه ، وهزل جسمه ، وشطَّ جلده ، ورسمت التجاعيد على وجهه خريطة ماضيه ، وهو يتَّكئ على عصا ويعسر عليه الوقوف طويلاً ، فبادرتُهُ طالباً منه الجلوس ، فرمقني بعينين غائرتين يملؤهما الحزن وقال: أريد أن أشكو أمري إليك ، لتحكمَ لي ، فأنا مظلوم قد تقاذفتني المصائب من كل الجهات. فأشفقْتُ عليه ، وتملَّكني شعورٌ بالعطف والرأفة ، فقلت: قل يا عمّ ما شئت ، فكلي آذان مُصغِية. فبدأ بسرد قصة ألمه: إني بائعٌ فقير على باب الله ، أعتاش من بيع القليل من الخضار كبعض الحزم من البصل والفجل والثوم ، وقد ابتلاني الله بزوجةٍ لا تنجب ، فلجأتُ إلى المشايخ ، واتخذت التمائم (الحُجُب) ، ولكن ما وجَدْت نفعاً ، ثم تابعْتُ وصفات العطارين سنوات وسنوات ، وتناولْتُ أعشابهم وخلطاتهم الطبية ، ولكن دون جدوى ، فاستشرْتُ أهل العلم ، فقالوا لي: توجَّه إلى مسجد الحنابلة ، وهناك اطلب ما تشاء ، فللمكان حرمةٌ وقدسيَّةٌ عند الله عز وجل.

عزيزي القارئ... لا تعجب من كلام الشيخ ، فقد كانت هذه الأفكار

ثقافةً شائعةً في مدننا العربية ، وكان الناس يعتمدون على التمائم في شفاء الأمراض وصرف الأرواح ودفع أذى الجان ، مع العلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لعن من اتخذ التمائم ، بل وأدخله في عداد المشركين. ولعلَّ الرقى الشرعية الثابتة في صحيح السنّة كافية لدفع أذى الجان والاستشفاء ، بعد الأخذ بالأسباب. وقد كان الناس نادراً ما يلجؤون إلى الأطباء ، وذلك لفقرهم وجهلهم ، حتى أن الحلاق كان هو الطبيب الذي يعالج من الأمراض ويقلع الأسنان ويداوي الجراح. . . .

وتابع الشيخ كلامه: وفعلاً أرسلْتُ زوجتي لمسجد الحنابلة ، وببركة المسجد وعُمَّار المكان من الملائكة وغيرهم حملت المرأة أخيراً ، ففرحْتُ فرحاً لم أفرح مثله حتى اليوم ، وقد تجاوزت اليوم الخامسة والثمانين من عمري.

ووُلِد الصبي ، فقلَّبْناه في فُرُش الدلال. . . إنْ ضحكَ ضحِكت لنا الحياة ، وإن بكى تزلزلت لبكائه الدار ، وإن مرض اسودَّت أيامنا وتنغَّص عيشنا ، وكلَّما ظهر سنه أو اشتد عوده كان لنا عيدٌ ، وكلما نطق بكلمةٍ جدَّت لنا فرحةٌ. وكان إن طلبَ شيئاً بذلنا في إجابة مطلبه الروح.

وبلغ الصغير سنَّ المدرسة ، وكانت حالي رقيقة ، فألحَّت عليّ أمه أن أدخله إلى المدارس ، فقلت لها: دعيه يعمل معي في مهنتي.

فصاحت غاضبةً: أيكونُ خضرياً مثلك؟

قلت: أتهزئين من مهنتي؟

فأجابتني: لا ـ والله ـ ولكني أحلم أن يكون ولدي باشا ذا شأنٍ ومكانةٍ بين الناس.

ومضَتِ الأيام ، وما زلت أقطع عن فمي الطعام لأنفق على دراسته ، حتى حصل على الشهادة الثانويّة ، وبدأ يطالبني بالسفر إلى أوروبا. فقلت: أعوذ بالله! تذهب إلى بلاد الكفّار؟ والله العظيم إنّ هذا لا يكون.

فأصرَّ. . . وأصررتُ. . . وأصرَّت أمه ، وناصَرَتْهُ ، فلما رأتني لا ألين

باعت سوارَي عرسها وقرطيها لتعطيه إياها ، وكان ذلك كل مالها من حلي اتخذتها عدة للدهر ونوائبه.

وسافر ولدي دون علمي ، فاشتعلت غيظاً ، ولم أرد على رسائله ، ولكن سرعان ما لان قلبي ، فضعفت أمام شوقي ، فأخذت الرسائل ، وكلما قرأتُ سطراً بكيت وتمنيت لو كان قربي لأضمه بين ذراعيَّ وأشم جبينه.

لا شكَّ أنَّ إقامة المسلم في ديار الأجانب الذين لا يتمثلون بخلق الإسلام محرّمةٌ شرعاً ، وذلك لخطورة تأثيرها على الدين والعقيدة ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ قوله: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»[1].

والثابت شرعاً أنّ الإقامة في بلادهم لغير العلم والاستطباب والعمل المؤقت محرمة؛ إذ لا يُباح للمسلم أن يقيم في مكانٍ ينحدر فيه دينه ، وواجب المسلم أن يهتم لا لدِينه فحسب ، بل لدِين أحفاده أيضاً.

وكم علمْتُ بقصص هجرةٍ إلى الغرب تنازل فيها أصحابها عن بعض قيمهم ، حتى وصل التنازل إلى قبول الرجل بمبيت عشيق ابنته في غرفة نومه. فسُلَّمُ التنازلات يبدأ بخطوة واحدة ، وأفحش علاقة جنسية محرمة بدأت بنظرة إعجاب واحدة.

وعاد الشيخ متابعاً: لقد أنهكتني رسائل ولدي تطالبني بما لا أطيق ، وأنا رجل رقيق الحال ودخلي بسيط. وأذكر مرةً أنه أرسل إليّ رسالةً يطلب مبلغاً ضخماً ، فكتبتُ إليه بعجزي عن المال ، ونصحْتُهُ ألاّ يحاول تقليد رفاقه ، فإنّ أهلهم موسرو الحال ونحن فقراء. وقلت له: كم بِتنا ـ أنا وأمك ـ جائعين لنرسلَ إليكَ المال ، ووالله لم يدخل اللحم بيتنا منذ أربعة أشهر. فكان جوابه برقيةً مستعجلةً يطلب المال حالاً.

وإنّك لتعجب يا سيدي إذا قلت لك: إني لم أتلقَّ برقية في عمري ، فلما قرع موزع البريد الباب ودفعها إليّ وأخذ إبهام يدي فطبع بها في دفتره انخرطت كبدي من الخوف ، حتى إنّ عينيّ لم تغمضا طوال تلك الليلةِ خوفاً من

---

(١) سنن أبي داود (٧/ ٢٣٧) ، ح ٢٢٧٤.

محتواها ، وبقيت وأمه قلقين حتى حلول وقت صلاة الفجر ، حيث أعطيتها لمعلم الحي فقرأها قائلاً : إنه يريد مبلغاً كبيراً .

عند ذلك غزت نفسي الهواجس تقول لي : لعلّه سجين يحتاج إلى هذا المبلغ ؛ ليخرج من سجنه وخشي أن يخبرنا بحاله فنتقطّع حزناً عليه ، أو لعلّه مريضٌ ، أو أصابته آفةٌ . . . . . وكاد رأسي ينفجر ، فما دريتُ بنفسي إلا وقد بعت البيت بنصف ثمنه ، واقترضت تتمة المبلغ من رجلٍ يهوديٍّ مرابٍ لأرسلها إليه ، ولم أستطع في تلك الأثناء التفكير بأي شيءٍ آخر . وانقطعت عني رسائله بعد ذلك أربع سنوات ، ولم يجب على السيل من الرسائل التي بعثتُ بها إليه .

وفي أحد الأيام وإذا بالمرابي اليهودي يطالبني بسداد الدَّين الذي حل أجله ، فبذلْتُ كل ما يُبذَل ، ولكنني عجزْتُ ، عند ذلك أُدخِلْتُ السجن ، فكنتُ أنام على البلاط ، وآكل الجاف الخشن من الطعام ، بل وأقوم على خدمة بعض السجناء الأغنياء لأحصل على بضعة قروش أُرسِلها إلى زوجتي المسكينة التي اضطرت للعمل كخادمةٍ في البيوت وغاسلةٍ للثياب ، حتى تُحصّل لقمةً تدفع الجوع والموت عنها .

ولما خرجْتُ من السجن والتقيت بزوجتي جاءنا من أخبرنا أن ولدنا في الشام ، وأن له بيتاً فاخراً ، وقد عمل بوظيفةٍ حكوميةٍ عالية ، فأمسكتُ بيد أمه العجوز ، واتجهت إليه ، فلمّا طرقْتُ البابَ فتحت الخادمة ، ثم رمقتنا شزراً وقالت بأنفةٍ : من أنتم؟

فسألتها : أين البيك؟

أجابت : إنه لا يستقبل الغرباء في بيته .

قلت : لسنا غرباء يا قليلة الأدب ، أنا أبوه وهذه أمه .

فسمع جلبتنا ، فخرج وقال : ما هذا؟ وخرجَتْ وراءه امرأةٌ فرنسيةٌ جميلة .

فلمّا رأتْهُ أمه بكت وقالت : ولدي حبيبي . ومدّت يديها وهمّت بإلقاء نفسها عليه ، فابتعد عنها ونفض ما مسّته من ثوبه ، وقال لزوجته كلمة بالفرنسية ،

فسألنا بعد ذلك عن معناها ، فعلمنا أن معناها: مجانين. ودخل ولدي الغالي ، وأمر الخادمة أن تطردنا.

عند ذلك شعرت بقهرٍ لم أرَ شبيهاً له طوال حياتي ، وتكسّر قلبي كجدارٍ من زجاج استحال إلى ذراتٍ من الرذاذ والمرارة ، وكان حزني على أمه أعظم من حزني على خيبتي ، فأمسكْتُ بيدها وقلت لها: سيري ، فإننا أخطأنا ، يبدو أن هذا الرجل ليس ولدنا. ولكنها غرقت في صمتٍ لم تخرج منه حتى هذه الساعة.

وانتظرت ولدي في الطريق ، فأمسكت بيده وقلت له: أجننت؟ فنهرني مُعنِّفاً وقال: إنْ أفصحت لمخلوقٍ بأني ابنك سأقتلك ، وإن شئت جعلت لك راتباً شهرياً!

عند ذلك أتيت إليك يا سيدي القاضي لتعيد لي حقي ، أتستطيع أن تعيد لي قلبي الذي استحال فتاتاً؟ أتستطيع أن تعيد لي أملي وحبي اللذين تحطّما تحت أقدام ولدي؟

فقال القاضي: لابد من رفع دعوى أمام القضاء ، أخبرني عن اسمه وعمله ومكان إقامته.

فقال الرجل: إذا فعلت ذلك قتلني ، لا حاجة لي في القضاء. وقام يجر رجليه يائساً ، وذهب ولم يعد.

لقد امتلأ قلب الشيخ ذعراً من ولده وفلذة كبده الذي طالما احتضنه بين يديه ونام على صدره ، بل وقطع الخبز عن فمه حتى يسعده. فأي غدرٍ وأية خيانةٍ وأي فجورٍ طغى على نفس هذا الشاب العاق؟!

وأين هو من قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور». قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٣٦) ، ح ٢٤٦٠.

فعقوق الوالدين أكبر جريمة يمكن للمرء أن يرتكبها بعد اتخاذ شريك لله عز وجل. وثِق أن هذا العاق قد ضمن لنفسه دخول جهنم من أكبر أبوابها ، إلا إذا تاب وأصلح ، وهيهات لمثل هذه النفسية الفاجرة أن تؤوب وتتوب!

وأين هذا اللعين من قول المصطفى ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث»[1].

ومن البديهي أن من لا ينظر الله إليه نظرة رحمة فهو في أودية سقر ، وإذا سألْتَ عن سقر فاعلم أنها دركة من دركات العذاب ، وطبقة من طبقات الجحيم ، فاقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2].

وأزِفُّ البشرى للعاقين جميعاً ، فأقول لهم: هذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «يراح ريح الجنة من مسيرة خمس مئة عام ، ولا يجد ريحها منَّانٌ بعمله ، ولا مدمن خمر ، ولا عاق»[3].

ويقول: «لعن الله سبعة من فوق سبع سماواته ، وردد اللعنة على واحد منهم ثلاثاً ، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه ، فقال: ملعون من عَمِلَ عمَلَ قوم لوط ، ملعونٌ من عمِلَ عمَلَ قوم لوط ، ملعونٌ من عمِلَ عمَلَ قوم لوط ، ملعونٌ من ذبح لغير الله ، ملعونٌ من أتى شيئاً من البهائم ، ملعونٌ من عقّ والديه . . . .»[4].

وليعلم كل عاقٍّ بأنه سيشرب من ذات الكأس ، فكما تدين تُدان ، وبالكيل الذي تَكيل به تُكال. ومصداق ذلك قوله ﷺ: «بروا آباءكم تبرّكم أبناؤكم ، وعفوا عن نساء الناس تعفّ نساؤكم»[5].

---

(١) سنن النسائي (٨/ ٣٤٢) ، ح ٢٥١٥.
(٢) المدثر (٢٦ – ٣٠).
(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٦١) ، ح١٤٣.
(٤) المرجع السابق (٢٠/ ٦٢) ، ح ١٣٤٧.
(٥) الحاكم في المستدرك (١٧/ ٩٩) ، ح ٧٣٦٨.

فلا بُدّ لكل عاقٍّ من أن يُذل ويهان من أولاده ، إعمالاً لمفهوم المخالفة من هذا الحديث ، ومما يؤكد ذلك ويوثقه قول النبي عليه الصلاة والسلام : «كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين ، فإن الله تعالى يعجِّلُه لصاحبه في الحياة قبل الممات»[1] .

ولعل من المفيد هنا أن نذكر فوائد بر الوالدين ولو بإيجاز :

إن إكرام الوالدين عمل يحبه الله تعالى ، وهو يساوي ثواب الجهاد في سبيل الله ، ويساوي ثواب الحاج والمعتمر ، ويوصل إلى نعيم الجنة ، ويزيد في العمر وفي الأرزاق ، ويزيد البركة في المال ، وهو فرصة سانحة لضمان دخول الجنة ، فمن ضيعها خاب ورغم أنفه ، وهو يزيل الهموم ويجلب اليسر ويضمن النجاة ، وقد قرن الله تعالى رضاه برضاهما .

إن هذه النتائج والآثار مستمدة من فقه أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وليست كلاماً ولا ادعاءً ، فاعلم ذلك واختر لنفسك .

* * *

(١) المرجع السابق (١٧/ ١٠٣) ، ح ٧٣٧٢ .

الصديقـــان

إنهما معاً منذ الطفولة ، لا يكادان يفترقان ، إذا رأيت أحدهما سألت عن الثاني حالاً. وكيف لا وهما جاران في بيتين متلاصقين ، وفي مقعد دراسي واحد ، وحصلا على الشهادة الثانوية معاً ، وتوجها للعمل التجاري معاً. . . لكنك إذا أمعنت النظر في وجهيهما واخترقت بفراستك ما وراء ذلك لمست الخبث في أحدهما ، والغفلة والسذاجة في الآخر ، ولكنهما مع ذلك كانا منسجمين.

لقد نشأ صديقانا في إطار اجتماعي متحرر ، ويغلب على أبناء هذا الزمان التشبه بالمجتمعات المنفتحة ، فلم يعد هناك ما يسمى في بيوتنا الحرملك والسلملك (أعني غرفة للضيوف الرجال وأخرى خاصة بالنساء) ، بل استبدلت هاتان الغرفتان بمصطلح (الصالون) ، وهي كلمة فرنسية تعني في عرفنا الدارج الغرفة الكبرى الخاصة لاستقبال الضيوف من الجنسين.

بل إن الناس في أيامنا هذه ينفرون من كلمة (الحرملك)؛ لأنها مستمدة من الحرمة (وهو الشيء المحرم شرعاً) ، وقد كان الناس سابقاً يطلقون مفردة الحرمة على المرأة ، لكنها اليوم تنصرف في أذهان كثير من النساء والرجال إلى معاني التأخر والتخلف والكبت والظلم والمنع ، فإذا ناديت فتاة ما بكلمة (الحرمة) فكأنك شتمتها أو صفعت وجهها ، أما إن ناديتها بعبارة (متموزيل ، أو ديموزيل) فتكون قد أكرمتها وأجللتها ، وتُعَد رجلاً متحضراً تمتلك كثيراً من حسن التصرف واللباقة الاجتماعية ، ولا شك أن هذه الأفكار قد سادت نتيجةً لشعور الأمة بالنقص والعوز الحضاري تجاه الغرب.

كان الصديقان من أبناء هذا الجيل وتلاميذ هذا العصر ، فعمدا للتواصل

الاجتماعي الذي درجا عليه منذ حداثة سنيهما ، فكانت الحفلات والولائم تعقد في بيتيهما ، ولاسيما الصالونات الكبيرة التي ربما شغلت ثلث البيت. فتراهما مع أصدقائهما. . . . يأكلون ويشربون ويتضاحكون ، ويهبط مستوى الهزل فيما بينهم ، ويبدأ الجو بالتحول لخليط لا تستطيع أن تميز فيه بين امرأة هذا وامرأة ذاك ، وكان الخبيث منهم ينظر لامرأة صديقه نظرة لا تخلو من خبث ، وكيف لا والرجل يعبر عن طبعه؟! وكانت المرأة تستمتع بتلك النظرات الخبيثة واللفتات الدنيئة ، فتزداد دلالاً وغنجاً ، وتتضاحك لأقل إشارة أو فكاهة ، فتكون رنات ضحكاتها أشبه بدعوات للخيانة ، وتشجيع للخبيث بأن يتابع مسلكه ، بل ويطوره أيضاً.

وأما الصديق الغافل فلا يزداد إلا هبلاً. . . . يحرك رأسه بخفة توحي بامتلائه بالهواء ، وتراه بطيء الذهن ، عاجزاً عن قراءة النظرات وتفسيرها وتحليل الأصوات وألحانها، فللأصوات لحن تستطيع أن تقرأ به نفسية صاحبه، بل وما يفكر فيه ، فتستنبط صدقه وكذبه وعاطفته واحتياله ، بل وحبه وكراهيته أيضاً! ومصداق ذلك ودليله قوله عز وجل: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1].

وهذه الآية خطاب من الله سبحانه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام يخبره بكيفية التمييز بين المؤمن والمنافق ، وذلك عن طريق لحن القول كما تقدم ، ولا يخفى بأن الفراسة علم قائم بحد ذاته. ورحم الله الشافعي ، فقد مكث أربع سنوات في إحدى قبائل اليمن ليتعلم الفراسة ، وأثناء عودته وأصحابه خرج عليهم أعرابي ، فتفرس الشافعي في وجهه فقال: هذا بخيل لئيم. ولكنهم عندما اقتربوا منه أقسم عليهم بأشد الأيمان وأغلظها أن يبيتوا عنده ثلاثة أيام ، وذبح الذبائح ، وأخذ يفيض عليهم بالإكرام. فحزن الشافعي بأن فراسته لم تصب ، ولكن لما انقضت الأيام الثلاثة وهموا بالرحيل رافقهم الأعرابي إلى خارج القبيلة ، ثم قال لهم سائلاً: هل منكم من كان يعرفني قبل اليوم؟

قالوا: لا.

---

(١) محمد: ٣٠.

فقال: هل منكم من يعرف أبي؟

قالوا: لا.

فقال: اخرجوا بثمن طعامكم ومبيتكم ثلاثة أيام. فسُرّ الشافعي بأن فراسته بالرجل لم تكن خاطئة.

أعود لذلك الصديق الغافل الذي لم يفقه ما يدور حوله ، وصديقه الخبيث الذي كان مرة تلو مرة يتعمد الجلوس بجوار امرأة صديقه ، ولا سيما حول مائدة الطعام ، ولربما كانوا في ليلة قد تجمعوا حول المائدة ، إذ تنسل يده من تحت الطاولة لتصل إلى ركبتها ، والمرأة تتقبل تلك المداعبة بسرور ، والمائدة تخفي ما كان تحتها من اختلاسات.

ومضت الليالي.. وتطورت الأحداث.. حتى صار صاحبنا يتعمد المجيء إلى بيت صديقه أثناء غيابه، وكان ما كان، ووقعا في علاقة محرمة أكثر من ثلاثين مرة!

وكان للمرأة من زوجها ثلاثة أولاد ، وبدأت زوجة الخبيث تتنبه لحركاته ونظراته ، فواجهت زوجها ، فما كان منه إلا أن نهرها وهددها بالطلاق ، فأرادت الدفاع عن أسرتها ، فأخبرت الزوج المخدوع الذي انطبقت عليه مقولة: «الزوج آخر من يعلم». ولكن المصيبة أن صاحبنا كان قليل الغيرة ، لا يبالي كثيراً ، ومع ذلك أخذ يتنبه لتصرفات زوجته وصديقه ليستوثق من كلام المرأة ، فلعلها الغيرة المنتشرة بين النساء هي التي دفعتها لما قالت.

ولكنه بدأ يلاحظ تعمد جلوس صديقه بجوار زوجته ، ولربما لمح حركات الأيدي والأرجل تحت المنضدة... ، عند ذلك طلب من زوجته أن تقطع علاقتها بصديقه الخبيث!!!

سبحان الله! كيف امتلك القدرة على أن يبقيها على عصمته؟! ولا سيما أنها اعترفت له بصراحة عما كان بينها وبين صديقه من خيانة ، بل خيانات تجاوزت الثلاثين مرة.

وأعجب كل العجب كيف تمالك نفسه ، ولم يقدم على قتلها ، أو ضربها

كما يحدث غالباً في مجتمعاتنا الشرقية؟!

ولسنا نقول: إننا مع القتل أو الضرب. . . . فالقتل ليس حلاً سليماً ، بل هو جريمة لا تزيد الأمر إلا سوءاً ، ولا تزيد المجتمع إلا تمزقاً ، وسيكون مصير مرتكبه السجن ، إلا إذا ضبط الزوج زوجته أثناء خيانتها ، فإن من شأن ذلك أن يخفف العقوبة شيئاً ما ، وسيكون مصير الأولاد التشرد والفضيحة التي ستحمر لها الوجوه وتلاحق الزوج وأولاده مدى حياتهم.

وأما إن سألت عن قلة الغيرة التي أصابت هذا الزوج ، فاعلم أن الإنسان ابن بيئته ، وأن سلم التنازلات يبدأ بدرجة واحدة ، ثم درجتين ، فثلاثة. . . . حتى يصل إلى القاع.

هذه الدرجة الأولى بدأت في نبذ الناس لغرفة الحرملك ، واستبدالها بالصالون المشترك الذي يحوي النساء والرجال معاً ، ثم تطور الأمر إلى ما كان عليه.

ثم متى كان في شامنا ما يسمى صديق الأسرة ؟! إنه مصطلح غربي اقتحم أسرنا.

وكيف ترضى رجولة العربي أن يكون صديقه صديقاً لزوجته أيضاً ، ولو بالمعنى الطاهر للكلمة؟ وأي صداقة هذه التي تكون بين رجل وامرأة؟

ثم إن قبول الرجل ارتداء امرأته الملابس الضيقة وكشفها عن عورتها يعد الخطوة قبل الأخيرة في تقبله النفسي لخيانتها؛ لأنه استساغ أن ينظر الرجال إلى زوجته نظرة شهوة محضة. بالإضافة إلى أكل كثير من الناس لحوم الخنازير التي لا بد أن تنعكس على أخلاقهم ، فالشعوب التي تأكل لحوم الشاة تكون أقرب إلى الوداعة ، أما التي تعتمد لحم الإبل فتتحلى بصفات الأنفة والعزة والغيرة الشديدة.

أما الخنازير. . . تلك المخلوقات القذرة التي يعلو بعضها على بعض ، ولا تلتزم أنثاها بزوج واحد ، ولا ذكرها بزوجة واحدة ، فجماعتهم أشبه بالمشاعية الجنسية.

ولحم الخنزير يحوي (٤٥٠) مرضاً مهلكاً ، بالإضافة إلى قذارة طبعه كما هو معروف في علم الأحياء ، فالذكر إذا دخل فرأى خنزيراً آخر على زوجته فإنه يبدأ بمداعبته رضىً بما يصنع .

ولا يخفى أن الغرب كثيراً ما يصدّر للمجتمعات الإسلامية ـ خاصة ـ أغذية يَدسُّ فيها شيئاً من دهون الخنازير ولحومها وشحومها ، سعياً منه لتحويل المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات شبيهة بحظائر الخنازير ، كما هو الحال في المجتمعات الأوروبية ، فحامل الداء لا يهنأ إلا بتصدير دائه إلى الآخرين .

ومن أجل ذلك كله حرم الله على المسلمين لحم الخنزير فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[1] .

وكان ما كان. . . . إنه الطلاق! لكنه لم يكن قراراً من الزوج أو ثأراً لكرامته ، بل كان في المحكمة بطلب من الزوجة . وطلق الزوج الخبيث زوجته أيضاً ، واجتمع الشيطانان في زواج آثم بعد أن شرَّدا خمسة من الأطفال الأبرياء .

وأما الزوجة الخبيثة فقد تبرأ منها أهلها ، وأسفوا لأنهم كانوا يوماً حضناً لابنة ضالة كهذه ، ولم يبقَ لها إلا زوجها الخبيث .

وما هي إلا أشهر حتى اكتشفت أنها امرأة لتاجر حاول أن يدخل عليها رجالاً لقاء ثمن بخس ، فكانت خيبتها عظيمة ، وهي التي باعت زوجها الأول وأطفالها وأهلها في سبيل تاجر يحترف تسويق الرقيق الأبيض ، ولو كانت زوجته .

وشاءت حكمة الله ونقمته أن يتشاجر الخبيثان يوماً ، وتنفجر جرة الغاز عليهما دون أن يشعرا ، فيموتان حرقاً . . . ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[2] .

ولعله تعالى أراد أن يذيقهما لظى نار الدنيا قبل أن يذوقا لظى نار الآخرة .

* * *

---

(١) المائدة: ٥ .

(٢) البروج: ١٢ .

أبُو وَجْـــد

لقد دارت أحداث هذه القصة منذ شهرين في بلدٍ عربي ، فقد رزق صاحبنا بطفلة بيضاء ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين ، فكانت من أجمل البنات ، يتمنى كل إنسان ويحلم بمثلها.

ولعلك تعلم أن كثيراً من الناس ينفقون عشرات الملايين في سبيل الحصول على قُلامة ظفر طفل ، ولكن صاحبنا عششت في رأسه أفكار من الجاهلية الأولى ، فكان يكره الإناث ويعشق الذكور ، فسخط على زوجته وعلى قضاء ربه ، وهجر الطفلة ، وكأنها ليست ابنته.

وعجباً لقلب أب تبلغ ابنته ثلاث سنوات ولم يقبلها ولو مرة واحدة ولم يلاعبها ، وكأنها لا تسكن في بيته. وعجباً لقلوب صُبت من حجر، إن منظر الأطفال وهم يزحفون ويضحكون يجذب العقول حتى يسكرها ، ويخطف الأبصار ويذيب الحشا في الصدور ، وأما رنات ضحكاتهم فكفيلة برفع جميع الرايات البيضاء.

لقد بكت الفتاة ، وضحكت ، وزحفت ، ومشت على قدميها. . . ، وكم هتفت راكضةً إليه ، فيعبس في وجهها ويحجم عنها كأنه من زبانية جهنم ، أو من سكان الكهوف الذين يخالطون الوحوش في العصر الحجري.

لقد وهب الله طفلتنا وجهاً ملائكياً مشرقاً كالثلج ، وليتك ترى شعرها حين يتموج فوق جبينها ، ولكن كل هذا الجمال لم يحرك عاطفة ذلك الرجل.

وفي يوم استلقى صاحبنا على فراشه ، فأخذت الصغيرة تقذف الكرة تجاهه تلاعبه ، وما زالت تفعل ذلك. . . ولكن ليس من مجيب. وغطَّ الأب في نوم

عميق ، فتسلقت الفتاة فراشه ، وأمسكت بيده وهو لا يشعر ، وأخذت تمرر يده على شعرها ووجها متخيلةً أن أباها يداعبها ، ثم نامت على صدره ، فلما استيقظ من رقاده فوجئ بطفلته مستلقيةً ملتصقة بصدره ، فتسرب إليه شعور بالحنو لم يعرفه قبل ذلك اليوم ، ووضع يده على رأسها ، ومسح على شعرها لأول مرة منذ ولادتها ، وكأنها كانت صحوة من موت عميق .

وفي اليوم الثاني حضر الأب إلى بيته وقد جلب لابنته بعض الحلوى (السكاكر) ، ودخل عليها ، فأسرعت إلى أبيها ، وتناولتها منه ، وأخذت تمص إصبعه معها ، فشعر بشعور غريب ، إنها أول مرة يتلمس فيها فم ابنته .

وفي ذلك اليوم اضطرت الأم للخروج من البيت لأزمة أصابت أباها ، فبقي الرجل مع ابنته في البيت دون وجود الأم لأول مرة في حياته . وفجأة استلقى على أريكته ، وبدأ يتعرّق ، ثم بدأ جسده يختلج ، ثم اصفرَّ وجهه ، ثم ازرقَّ ، ولم يستطع الحراك ، فقد أصابه استرخاء كامل ، وشعر بالموت يطوف فوق رأسه ، ولم يستطع حتى تحريك لسانه أو الاستنجاد بأحد ، وكادت روحه تفارق جسده بلحظات .

وكنسمة ربيعية تسلقت الطفلة على أبيها مداعبة له ، ثم وضعت قطعة من السكر في فمه ، وذهب بعدها صاحبنا في غيبوبة . . . ولم يفق إلا والطبيب عند رأسه في المشفى . وعلم بأنه قد أصيب بهبوط حاد في السكر ، ولولا طفلته الصغيرة التي وضعت قطعة السكر في فمه لأصيب بشلل تام ، فكانت تلك السُّكَّرة سبباً في تعديل معدل السكر في دمه ، فنجا من شلل محقق .

فسبحان الله ! كيف كانت هذه الطفلة التي هجرها وغضب عند ولادتها سبباً في حمايته ونجاته ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] .

وعسى كل واحد منا يحسن تقدير نعم الله ، ولا يتواقح على ربه بازدراء نعمته والاعتراض على قضائه وقدره ، فهذه الفتاة التي أبغضها أبوها ؛ لكونها أنثى كانت طوق نجاة له من مصير بائس ، وكأن الله أراد أن يؤدبه ليقف خاشعاً

---

(١) النساء (١٩) .

عند عتبة العبودية ولا يتجاوزها بجهله وظلمه ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

وصلى الله على سيد الخلق وحبيب الحق محمد المصطفى الذي كان ـ مع جلال قدره وعلو شأنه ـ ينحني على الأرض؛ ليصعد الحسن والحسين عليهما السلام فيمتطيان ظهره الشريف ويمشي بهما على يديه وقدميه ، وهو يقول لهما مداعباً: «نِعْمَ الجمل جملكما ، ونِعْمَ الحملان أنتما»[2].

بالله عليك... هل رأيت ملكاً أو إمبراطوراً من أباطرة الأرض يفعل شيئاً من ذلك؟

لقد كان عليه الصلاة والسلام ـ نفسي فداءه ـ منصوراً بالرعب مسيرة شهر ، وإذا أشار بإصبعه استلَّت مئات الآلاف من السيوف فداء لقدميه ، وتراه مع ذلك أطال السجود مرة ، فلما انصرف رسول الله ﷺ قال الناس: يا رسول الله ، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها ، أفشيء أمرت به؟ أو كان يوحى إليك؟ قال: «كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني ، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[3].

فليت رجال هذه الأمة يتتلمذون في مدرسة مَنْ وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4].

فمتى نتحرك من هذه العقلية الجاهلية ، فنسوي بين أبنائنا ذكوراً وإناثاً ، فالكرامة ليست مناطة بالجنس ، بل بالتقوى والعمل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

* * *

---

(١) الأحزاب (٧٢).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٨٧) ، ح ٢٥٩٥.

(٣) الحاكم في المستدرك (١١/ ٨٧) ، ح ٤٧٥٩.

(٤) القلم: ٤.

المحتوى

المحتوى

المقدمة ٥
اليتيمان ٧
ـ الحمُو الموت ١٣
ـ نضعه في الصندوق ١٩
ـ نصيحة من وراء القضبان ٢٣
ـ أحلامي في أمريكا ٣٠
ـ الطالبة الجامعية ٣٥
ـ الأفلام ٤٠
ـ حكاية عربي مستغرب ٤٥
ـ في نهر دجلة ٥٠
ـ شيخ الزورق ٥٤
ـ ما شاعت الفاحشة في قوم ٥٩
ـ عاشق الفرنسية ٦٣
ـ الأم ٦٨
ـ الحجاب ٧٢
ـ الخادمة ٧٧
ـ الخيانة المتبادلة ٨٤
ـ اللحظة الأخيرة ٨٩
ـ النتيجة الطبيعية ٩٣
ـ ظن أنه صياد فاصطادوه ٩٩

ـ ساحر في ثوب عالم ١٠٧
ـ وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ١١٤
ـ فاضت روحه وهو يغني ١١٨
ـ البيت الدمشقي بين الماضي والحاضر ١٢٤
ـ الخمر أم الخبائث ١٣٤
ـ العجوز المتصابية ١٤٠
ـ اللهو حتى الزواج ١٤٦
ـ خاتمة السوء ١٥١
ـ سبق السيف العذل ١٥٥
ـ شيخ الغيبوبة ١٦٠
ـ ولو بعد حين ١٦٢
ـ خيبة أب ١٦٥
ـ الصديقان ١٧٢
ـ أبُو وَجْد ١٧٧
المحتوىٰ ١٨٠

* * *